شعراء المديح والهجاء

١

شعراء المديح

تعوَّد العرب منذ العصر الجاهلى أن ينوِّهوا فى أشعارهم بأشرافهم وذوى النباهة منهم ويتحدثوا عن خصالهم النبيلة من الكرم والشجاعة والحلم والوفاء وحماية الجار ؛ وكان لا يُعَدُّ السيد فيهم كاملا إلا إذا تغنى بنباهته ومناقبه غير شاعر . ومضوا على هذه السنَّة فى الإسلام ، فكل سيد فيهم وكل ذى مكانة يودّ لو يَحْظَى بشاعر يُشيد به ، حتى يسير الركبان بذكره . وتستطيع أن ترجع إلى كتب الأدب والتاريخ مثل الأغانى والطبرى لترى مصداق ذلك واضحا ، وكأنه لم يعد للشعراء من شاغل يشغلهم سوى مديح الخلفاء والولاة والقواد والأجواد ، وسنعرض لمُدَّاح الأولين فى الفصل التالى . أما الولاة فإنه لا يوجد من بينهم مَنْ لم يتعلق الشعراء بمديحه ونَشْر ورود الثناء فى طريقه .

وأولُ من يلقانا من الولاة البارزين فى العراق لهذا العصر زياد بن أبيه ممدوح حارثة[١] بن بدر الغُدانى التميمى ومسكين[٢] الدارمى ، وقد شُغف عبد الله بن الزُّبير الأسدى بمدح ابنه عبيد الله[٣] . ويخضع العراق لابن الزبير ، ويولِّى عليه أخاه مصعبا ، وكان جوادا سمحاً ، فالتفّ حوله كثير من الشعراء يمدحونه من أمثال ابن قيس الرقيات وأعشى[٤] هَمْدان وُدكَيْن الفُقَيْمى[٥] . ويدخل العراق فى طاعة عبد الملك بن مروان فيولِّى عليه خالد بن عبد الله بن أسيد الأموى وهو من الأجواد الممدحين[٦] ولا يلبث أن يعزله ويولى أخاه بشرا « وكان من فتيان قريش سخاء ونجدة ، وكان ممدَّحا » مدحه جريرٌ والفرزدق والأخطل

---

(١) أغانى (ساسى) ٢١/١٩ وطبرى ٤/١٦٨ والمبرد ص ١٧٩ .

(٢) ابن سلام ص ٢٥٩ .

(٣) أغانى (دار الكتب) ١٤/٢٢٧ ، ٢٣٥ .

(٤) أغانى ٦/٣٣ وطبرى ٤/٥٦٥ ، ٥٩٢ .

(٥) معجم الأدباء (طبع مصر) ١١/١١٦ .

(٦) المحبر لابن حبيب ص ١٥٠ والطبرى ٥/٤٥ حيث يذكر أنه وزع على الناس فى يوم واحد ألف ألف .

وكثيِّر وأعشى بنى شيبان[١] ، كما مدحه نصيب[٢] والأقيشر[٣] الأسدى وأيمن[٤] بن خُرَيم وغيرهم كثير . ويخلف بشرا الحجاج الثقفى ، ويظل نحو عشرين عاماً ، والشعراء يتوافدون على بابه من مثل جرير والفرزدق وأعشى[٥] بنى شيبان وحُمَيد[٦] الأرقط وإيلى[٧] الأخيلية . وكانت فيه قسوة جعلت من يقرّبون بعض الجنايات حين يقعون فى يده يمدحونه مدحاً مسرفاً على شاكلة قول العُدَيل بن الفرخ العِجْلىّ فيه[٨] :

خليلُ أمير المؤمنين وسيفُه لكلِّ إمـامٍ مُصْطَفًى وخليلُ
بَنَى قُبَّةَ الإسلام حتى كأنما هدَى الناسَ من بعد الضلال رسولُ

ولعل من الطريف أن نجد محمد بن عبد الله النميرى الثقفى[٩] يهوى أخته زينب ، وينظم فيها غزلا كثيراً يملؤه موجدة عليه ، فيطلبه ويهرب منه إلى اليمن ويركب البحر هناك ، ثم يعود إليه ، وقد ضاقت به الأرض ، متوسلا بمدائح كثيرة ، تجعله يعفو عنه .

ويتولّى العراق لسليمان بن عبد الملك يزيد بن المهلب . وسنعرض لمدّاحه عما قليل . وقد عزله عمر بن عبد العزيز ونراه يثور فى عهد يزيد بن عبد الملك ويقضى على ثورته أخوه مسلمة ويوليه العراق لفترة محدودة ، ومن مدّاحه أبو نُخَيْلة[١٠] وأعشى[١١] تغلب . وخلفه على العراق عمر بن هبيرة الفزارى . وللفرزدق

---

(١) ابن سلام ص ٣٧٧ .
(٢) أغانى (دار الكتب) ١/٣٣٤ .
(٣) أغانى ١١/٢٧٠ .
(٤) انظر ترجمة أيمن فى الشعر والشعراء ١/٥٢٦ والأغانى (طبع ساسى) ٢١/٢٠٥ والإصابة ١ / ٩٤ وتهذيب ابن عساكر ٣/١٨٧ والموشح ص ٢٢١ .
(٥) أغانى (ساسى) ١٦/١٥٦ .
(٦) طبرى ٥/١٩٠ وانظر ترجمته فى معجم الأدباء ١١/١٣ .
(٧) أغانى (دار الكتب) ١١/٢٤٨ .
(٨) البيان والتبيين ١/٢٩١ وانظر ترجمته فى الأغانى (ساسى) ٢٠/١٠ والشعر والشعراء ١/٣٧٥ والاشتقاق لابن دريد ص ٣٤٥ والخزانة ٢/٣٦٧ .
(٩) انظر ترجمته فى أغانى (دار الكتب) ٦/١٩٠ ومعجم الشعراء للمرزبانى (طبعة الحلبى) ص ٣٤٢ .
(١٠) انظر الأغانى (ساسى) ١٨/١٤٠ .
(١١) مات على النصرانية سنة ٩٣ . انظر فى ترجمته الأغانى (طبع دار الكتب) ١١ / ٢٨٠ وما بعدها ومعجم الأدباء لياقوت ١١/١٣٢ ومجلة المشرق ج ٢٢ ص ٢٩٨ .

فيه مدائح[١] ، لعله أراد أن يغسل بها هجاءه المقذع فيه ، ومثلها مدائحه فى خالد القسرى الذى ولى بعده[٢] ، وكأنه يكفر عن هجائه لهما ببعض المدائح . وممن مدحوا خالدا القسرى جرير[٣] ، وأبو الشَّغب وفيه يقول حين عُزل وسجن :[٤]

فإن تسجنوا القَسْرِىَّ لاتسجنوا اسمه ولا تسجنوا معروفه فى القبائلِ

وكان الذى وَلِىَ العراق بعده يوسف الثقفى . ويرى الكميت بمدحه تقية وخوفاً من بطشه[٥] . وآخر ولاة هذا الإقليم يزيد بن عمر بن هبيرة ، وكان جوادا معطاء ، وهو ممدوح أبى عطاء[٦] السِّنْدى وبشار[٧] بن بُرْد وخلف[٨] بن خليفة .

ولم يمدح الشعراء فى العراق هؤلاء الولاة وحدهم . فقد كانوا يمدحون أيضاً نُوَّابهم وأصحاب شُرْطتهم وعمالهم على الخراج وعلى البلدان من مثل الحكم بن أيوب الثقفى نائب الحجاج على البصرة ، وهو ممدوح الفرزدق[٩] وجرير[١٠] ومثل مالك بن المنذر بن الجارود صاحب شرطة البصرة لخالد القسرى . ومن مُدَّاحه الفرزدق[١١] ، ومثل بلال بن أبى بردة ، نائب القسرى على البصرة . وهو ممدوح ذى الرمة[١٢] والفرزدق[١٣] وحمزة[١٤] بن بيض . وكان منقطعاً إليه ؛ ومثل أبان بن الوليد البجلى صاحب الخراج فى عهد القسرى . ومن مُدَّاحه الفرزدق[١٥] . ومثل قطن بن مدركة الكلابى والى البحرين . وقد خصه الفرزدق

---

(١) الديوان (طبعة الصاوى) ص ٢٨٠ ، ٥٧٩ .
(٢) الديوان ص ١٥٦ ، ١٦٥ ، ٣٣٥ .
(٣) الديوان (طبعة الصاوى) ص ١٧٤ .
(٤) البيان والتبيين ٢٣٦/٣ .
(٥) أغانى (ساسى) ١١٦/١٥ .
(٦) الشعر والشعراء ٧٤٥/٢ .
(٧) ديوان بشار (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٤٥/١ .
(٨) انظر ترجمته فى الشعر والشعراء ٦٩٢/٢ .
(٩) الديوان ص ٢٣ .
(١٠) أغانى (دار الكتب) ١٣/٨ وما بعدها .
(١١) الديوان ص ٣١ ، ٧٦ ، ٦٧٨ ، ٨٠٣ .
(١٢) انظر فهرس ديوانه (طبعة كمبريدج) والبيان والتبيين ١٤٨/١ وأغانى (ساسى) ٣٨/١٦ والمبرد ص ٢٥٩ .
(١٣) الديوان ص ٧٠ ، ٧٤ ، ٥٤٧ ، ٦٦٠ ، ٦٧٤ ، ٦٩٣ ، ٦٩٤ .
(١٤) انظر فى ترجمته الأغانى (طبعة الساسى) ١٤/١٥ وما بعدها ومعجم الأدباء ٢٨٠/١٠ وراجع فهارس البيان والتبيين والحيوان .
(١٥) الديوان ص ٦١ ، ٤٢٠ ، ٨٧٦ .

ببعض مدائحه[١] ، وكان المهاجر بن عبد الله والى البحرين جواداً ممدَّحا، ومن مدَّاحه جرير[٢] وأبو نُخَيْلة[٣] وذ و الرمة[٤]. ومن ولاة فارس الذين طار ذكرهم على ألسنة الشعراء عمر بن عبيد الله بن مَعْمر ، وله أحاديث كثيرة فى جوده[٥] وهو ممدوح كثيرين ، منهم زياد الأعجم[٦] وأبو حُزابة[٧] ومن ولاة الرَّىِّ الممدَّحين خالد بن عتَّاب بن ورقاء ممدوح أعشى هَمْدان[٨].

وإذا ولينا وجوهنا نحو خراسان وسجستان وجدنا الولاة والعمال هناك يَكيلون الأموال والعطايا للشعراء كيْلا ، وهم بدورهم ينثرون عليهم رياحين مديحهم نثرا . ولعل أسرة لم تَحْظ هناك بما حظيت به أسرة المهلب بن أبى صُفْرة الأزدى الذى قضى على الأزارقة فى فارس ، ثمَّ ولىَ للحجاج خراسان سنة ٧٨ وظلّ بها إلى أن توفِّى سنة ٨٢ فأقام الحجاج ابنه يزيد مقامه إلى أن صرفه عنها وولَّى عليها أخاه المفضل ، ولم يلبث أن عزله هو الآخر . وما نصل إلى سنة ٩٦ حتى يعود نجم المهالبة إلى البزوغ . إذ ولَّى سليمان بن عبد الملك يزيد على العراق ، وجمع له مع ولا يتها خراسان، فأصبح حاكماً للشرق. ويتولى عمر بن عبد العزيز ، فيعزله ويسجنه فى أموال خراج خراسان ، ولا نصل إلى عصر يزيد بن عبد الملك حتى يعفو عنه ؛ غير أنه لم يلبث أن قاد ضده مع إخوته وآله ثورة عنيفة ، قضى عليها مسلمة بن عبد الملك يؤازره هلال بن أَحْوز المازنى .

ولعلنا لا نُبعد إذا قلنا إن هذه الأسرة تقوم فى عصر بنى أمية مقام أسرة البرامكة فى عصر بنى العباس ، إذ كان أفرادها بحورا فياضة ، فنوَّه بهم الشعراء طويلا فى خراسان والعراق جميعاً . ويُؤْثَر عن المهلب أنه كان يقول : « عجبت لمن يشترى المماليك بماله ولا يشترى الأحرار بمعروفه[٩] » ونرى الشعراء مصطفين

---

(١) الديوان ص ٧٠٠ .
(٢) الديوان ص ٣٩ ، ١٢٥ ، ٢٥١ .
(٣) أغانى (ساسى) ١٨/١٤٥ وما بعدها .
(٤) انظر فهرس ديوانه .
(٥) المحبر ص ١٥١ .
(٦) أغانى (دار الكتب) ١٥/٣٧٩ ، ٣٨٥ .
(٧) انظر ترجمته فى الأغانى (طبعة ساسى) ١٩/١٥٢ .
(٨) أغانى (دار الكتب) ٦/٥٦ .
(٩) البيان والتبيين ٣/٢٠٥ .

ببابه يمدحونه مدائح رائعة ، وفى مقدمتهم كعب[١] الأشقرى وزياد[٢] الأعجم وحمزة[٣] بن بيض والمغيرة[٤] بن حَبْناء التميمى ونهار[٥] بن توسعة ، وله يرثيه حين توفى بمَرْو الروذ :

ألا ذهبَ الغزو المقرِّب للغِنى ... ومات النَّدَى والحزم بعد المهلَّبِ
أقاما بمَرو الرُّوذ رهنَ ضريحهِ ... وقد غُيِّبا عن كل شَرْقٍ ومغربِ

وكان ابنه المغيرة على شاكلته جوداً ونَوالا غَمْرا ، وتوفِّى قبله بقليل ، فبكاه الشعراء طويلا على شاكلة قول زياد الأعجم فى مرثية بديعة له[٦] :

إن السماحةَ والمروءة ضُمِّنـا ... قَبْرًا بمَرْوَ على الطريق الواضحِ

ولا يكاد يوجد شاعر فى العراق وخراسان لأيام أخيه يزيد إلا مدحه ونوه به تنويهاً بعيداً ، ومن مُدّاحه الفرزدق[٧] ونهار[٨] بن توسعة وحمزة[٩] بن بيض وحاجب[١٠] الفيل والعُدَيْل بن الفرخ العِجْلىّ وفيه يقول[١١] :

يَداه : يَدٌ بالعُرْف تَنهب ماحَوَتْ ... وأخرى على الأعداء تسطو وتجرحُ

وكان كعب الأشقرى وثابت قُطْنة لا يفارقان مجلسه[١٢] ، وفيه يقول ثابت حين خذله أهل العراق فى ثورته على بنى أمية وفرّ واعنه ، فقُتل قَعْصاً بالرماح[١٣] :

إنْ يقتلوك فإنَّ قَتْلك لم يكن ... عارًا عليك وبعضُ قَتْلٍ عارُ

---

(١) طبرى ٥/٢٣ ، ٧٧ ، ١٥٩ وأغانى (دار الكتب) ١٤/١٨٧ وما بعدها .
(٢) أغانى (دار الكتب) ١٥/٣٨٣ وما بعدها .
(٣) أغانى (ساسى) ١٥/٢٤ .
(٤) انظر فى ترجمته الشعر والشعراء ١/٣٦٧ وأغانى (دار الكتب) ١٣/٨٤ والخزانة ٣/٦٠١ وفهرس الطبرى ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٢٧٣ والمؤتلف ص ١٠٥ والاشتقاق ص ٢٢٠ حيث يقول ابن دريد إنه استشهد بخراسان وكان شاعر تميم فى عصره .
(٥) انظر فى ترجمة نهار بن توسعة وأخباره الشعر والشعراء ١/٥٢١ والمؤتلف ١٩٣ والأمالى ٢/١٩٨ وفهرس الطبرى والأغانى .
(٦) ذيل الأمالى ص ١٠ وأغانى (دار الكتب) ١٥/٣٨١ .
(٧) ديوان الفرزدق ص ٤٦ ، ٣٧٤ .
(٨) الشعر والشعراء ١/٥٢٢ .
(٩) أغانى (ساسى) ١٥/١٨ .
(١٠) أغانى (دار الكتب) ١٤/٢٦٤ وما بعدها . وانظر فيه الشعر والشعراء ٢/٦١٣ وفهارس الطبرى والبيان والتبيين والحيوان وأمالى المرتضى (طبعة الحلبى) ٢/١٠٥ .
(١١) أغانى (ساسى) ٢٠/١٣ .
(١٢) أغانى (دار الكتب) ١٤/٢٦٦ .
(١٣) أغانى ١٤/٢٧٩

وكان أخوه المفضل ممدَّحا وممن أشادوا به كعب[١] الأشقرى وثابت[٢] قطنة ، وكذلك كان مخلد بن يزيد بن المهلب وكان يخلف أباه على خراسان ، هو ممدوح حمزة[٣] بن بيض والكميت[٤]. وفى المهالبة وكرمهم الفياض يقولُ بُكَير بن الأخْنَس[٥] :

نزلتُ على آل المهلَّب شاتيا فقيرًا بعيدَ الدار فى سنة مَحْل[٦]
فما زال بى إلطافُهم وافتقـــادهم وإكرامُهم حتى حسبتهمُ أهلى[٧]

ومن ولاة خراسان الممدَّحين قتيبة بن مسلم الذى وليها للحجاج بعد المهالبة سنة ٨٦ ، وهو أكبر قائد تولى لبنى أمية حربَ الترك ، وقد فتك بهم فتكاً ذريعاً ، وشقَّ الطريق إلى بلاد الشاش وسمرقند. وقد تغنَّى كثير من شعراء خراسان بانتصاراته الباهرة من أمثال المغيرة[٨] بن حَبْناء وكعب[٩] الأشْقرى ونهار بن تَوْسعة وفيه يقول[١٠] :

وما كان مذ كُنَّا ولا كان قبلنا ولا كائنٌ من بعدُ مثل ابن مسلمِ
أعمَّ لأهل الشِّرك قَتْلاً بسيفه وأكثر فينا مَغْنماً بعد مغنم

ووليها لعهد عمر بن عبد العزيز الجرّاحُ بن عبد الله الحكمىّ ممدوح الفرزدق[١١]. ومن الأجواد الممدَّحين الذين ولوها لخالدالقسرى الُجنَيْد بن عبد الرحمن المرِّى ممدوح جرير[١٢]، وأسد القسرى وكان بحراً فياضاً ، وقد نوه

---

(١) طبرى ٥/١٩٤ .
(٢) انظر مرثية بديعة له فيه بالأغانى ١٤/٢٧٥ .
(٣) أغانى (ساسى) ١٥/١٩ .
(٤) نفس المصدر ١٥/١٠٨ ، ١٢٢ .
(٥) البيان والتبيين ٣/٢٣٣ .
(٦) محل : مجدبة .
(٧) الافتقاد : طلب الشىء عند غيبته كناية عن كثرة سؤالهم عنه واهتمامهم بأمره .
(٨) طبرى ٥/٢٤٠ .
(٩) طبرى ٥/٢٤٧ وأغانى (دار الكتب) ١٤/٢٩٩ .
(١٠) أمالى القالى ٢/٢٠٢ والشعر والشعراء ١/٥٢٢ .
(١١) الديوان ص ٢٢٨ .
(١٢) الديوان ص ٥١ .

به الفرزدق طويلا[١] . وولیها ليوسف بن عمر الثقفى نصر بن سيار ، وكان شاعراً وبطلا مغوارا وغيثاً مدراراً ، وهو آخر ولاتها للأمويين ، وممن مدحوه قبل ولايته عليها الفرزدق[٢] وثابت[٣] قُطْنة ومن مُدّاحه فى ولايته أبو عطاء[٤] السِّنْدى . ومن قُوّاد الجيوش فى خراسان هلال بن أحْوز المازنى الذى أبلى فى حرب المهالبة مع مسلمة بن عبد الملك وهو قاتل جَهْم بن صفوان متكلم المرجئة فى ثورتهم بخراسان ، وممن أشادوا به طويلا الفرزدق[٥] وجرير.[٦]

ويلقانا فى سِجِسْتان من الممدّحين عبدالله بن الحَشْرج ، وكان واسع العطاء وفيه يقول زياد الأعجم[٧] :

إن السَّماحة والشجاعة والنَّدَى فى قُبَّةٍ ضُرِبتْ على ابنِ الحَشْرَجِ

ومنهم طلحة بن عبد الله الخُزاعى الملقب بطلحة الطلحات ، وهو أجود أهل البصرة فى عصره غير مدافَع ، وممن مدحوه أبو حُزابة[٨] وعُوَيْف[٩] القوافى والمغيرة[١٠] بن حَبْناء ، ونوّه به ابن قيس الرقيات طويلا حتى إذا توفّى رثاه بقصيدة بديعة[١١] ومنهم عبيد الله بن أبى بكرة ممدوح الفرزدق[١٢] وابن مفرِّغ[١٣] ، ومسمع بن مالك بن مسمع ممدوح أبى جِلدة اليشكرى ، وفيه يقول حين وافاه الموت[١٤] :

كنت الشهابَ الذى يُرْمَى العدوُّ به والبحرَ منه سِجالَ الجود نغترفُ

ومن ولاة الحجاز الممدّحين سعيد بن العاص والى معاوية على المدينة ، وكان يَنْحر

---

(١) الديوان ١٧٧ ، ٣٤٠ ، ٣٤٤ ، ٥٢٦ ، ٥٨١ ، ٥٩٢ ، ٦٢٦ ، ٨٧٥ .
(٢) الديوان ص ٣٤٧ ، ٤١١ ، ٥١١ .
(٣) طبرى ٥/٣٩٩ .
(٤) أغانى (ساسى) ١٦/٨١ .
(٥) الديوان ص ٥٥ ، ٦٠ ، ٢٢١ ، ٥٠٧ ، ٥٤٨ ، ٥٧٤ .
(٦) الديوان ص ٥٣ ، ٢٤٠ ، ٥٣٧ .
(٧) أغانى (دار الكتب) ١٢/٢٣ .
(٨) أغانى (ساسى) ١٩/١٥٣ .
(٩) انظر فى ترجمة عويف أغانى (ساسى) ١٧/١٠٥ والخزانة ٣/٨٧ ومعجم الشعراء ص ١٢٧ .
(١٠) أغانى (دار الكتب) ١٣/٨٥ .
(١١) ديوان ابن قيس الرقيات بتحقيق محمد يوسف نجم (طبع بيروت) ص ٢٠ .
(١٢) الديوان ص ٥٧ .
(١٣) أغانى (ساسى) ١٦/٧٠ وما بعدها .
(١٤) أغانى (دار الكتب) ١١/٣١٣ .

فى كل يوم جَزوراً يطعمه الناس[١]، وممن نوهوا به الحُطَيئة[٢] والفرزدق[٣]. وكان ابن الأزرق المخزومى والى ابن الزبير على اليمن جوادا معطاء، وهو ممدوح أبى دَهْبل[٤] الجمحى. ولعل واليا لم يُمْدح كما مدح عبدالعزيز بن مروان فى ولايته على مصر، وكان بحراً سيالا من بحور العرب، ومن مدّاحه نُصَيْب[٥] وابن قيس[٦] الرقيات وكثيِّر[٧] وعبد الله[٨] بن الحجاج والأحوص[٩] وأيمن[١٠] بن خُرَيم وأمية[١١] بن أبى عائذ. ومن ولاتها بعده عبد الله بن عبد الملك ممدوح الخزين[١٢] الكنانى.

ويلمع بجانب هؤلاء الولاة والعمال أسماء كثيرين من الأجواد، وفى مقدمتهم عبد الملك بن بشر بن مروان ممدوح ابن عَبْدل[١٣]، وعبد الواحد بن سليمان ممدوح القطامى[١٤]، وعبد الرحمن بن محمد بن مروان ممدوح عُوَيف[١٥] القوافى ومعاوية بن هشام بن عبد الملك ممدوح جرير[١٦]، وأسماء بن خارجة ممدوح القطامى[١٧] وأعشى شيبان[١٨]، وعكرمة بن ربْعِىّ الفياض ممدوح الأخطل[١٩] والعُدَيْل[٢٠] بن الفرخ العجلى، والمنذر بن الجارود ممدوح الفرزدق[٢١] وأبى الأسود[٢٢] الدؤلى، وزكريا بن طلحة الفياض ممدوح الأقيشر[٢٣] الأسدى. ومالك بن مسمع ممدوح العُدَيْل[٢٤]، وكانت قبائل ربيعة فى البصرة تجتمع عليه

---

(١) المحبر لابن حبيب ص ١١٥
(٢) ابن سلام ص ١٠٠، ١٠١ وأغانى (ساسى) ١٦/٣٨.
(٣) ابن سلام ص ٢٧١ والديوان ص ٦١٥.
(٤) المحبر ص ١٥٢.
(٥) أغانى (دار الكتب) ١/٣٢٤ وما بعدها.
(٦) أغانى ٥/٨٧.
(٧) البيان والتبيين ٣/١٢ وأغانى (دار الكتب) ٩/٣٣.
(٨) انظر فى ترجمته أغانى (دار الكتب) ١٣/١٥٨ والبيان والتبيين ١/٣٩٠.
(٩) ابن سلام ص ٥٤٣، ٥٤٦.
(١٠) أغانى (ساسى) ٢١/٧.
(١١) أغانى (ساسى) ٢٠/١١٥.
(١٢) أغانى (دار الكتب) ١٥/٣٢٣.
(١٣) أغانى ٢/٤٢٥.
(١٤) أغانى (ساسى) ٢٠/١١٩.
(١٥) أغانى (ساسى) ١٧/١١٧.
(١٦) الديوان ص ١٥٢، ١٨٢.
(١٧) ابن سلام ص ٤٥٥.
(١٨) أغانى (ساسى) ١٦/١٥٧.
(١٩) ابن سلام ص ٤١٧.
(٢٠) أغانى (ساسى) ٢٠/١٨.
(٢١) الديوان ص ٢٢٠.
(٢٢) أغانى (دار الكتب) ١٢/٣٣١.
(٢٣) أغانى ١١/٢٥٥.
(٢٤) أغانى (ساسى) ٢٠/١٧، ١٩.

فى الإسلام اجتماعها على كُليب فى الجاهلية . وممن كان لا يبارَى فى جوده عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وله فى كرمه أخبار وأحاديث يقصها الرواة ، ومن مُدّاحه ابن[١] قيس الرقيات. وكان يجرى على مثاله فى الجود بالمدينة عروة ابن الزبير ممدوح إسماعيل[٢] بن يسار النسائى ، وحمزة بن عبد الله بن الزبير ممدوح موسى[٣] شهوات ، وفيه يقول[٤] :

حمزةُ المبتاعُ بالمال الثَّنَـا ويرى فى بَيْعه أن قد غَبَنْ
وهو إنْ أعطى عطـاء فاضلا ذا إخاء لم يكدِّره بِمَنْ

وطلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق ممدوح الحزين[٥] الكنانى . ولعل من الخير أن نقف عند نفر من الشعراء الذين أحسنوا فن المديح لهذا العصر ، وقد اخترنا من بينهم نُصَيْباً من الحجاز والقطامى من الجزيرة وكعباً الأشقرى وزياداً الأعجم من خراسان .

نُصَيْب[٦]

شاعر حجازى نوبى الأبوين كان شديد السواد ، وجعله ذلك يحتجّ للونه كثيراً على شاكلة قوله فى بعض شعره :

فإن يَكُ من لوْن السَّوادُ فإننى لكالمِسْك لا يَرْوَى من المِسْكِ ذائقُهْ

وكان مُسْتَرَقًّا لرجل من كنانة من أهل وَدّان بالقرب من مكة ، وتيقظت فيه موهبة الشعر مبكرة ، فكاتبَ مولاه ، وفزع إلى عبد العزيز بن مروان بمصر ، فردَّ إليه حريته ، وكان لذلك أثر عميق فى نفسه . فدبَّج فيه مدائح رائعة من مثل قوله :

---

(١) أغانى (دار الكتب) ٥/٧٩ ، ٨٦ .
(٢) أغانى ٤/٤٠٨ .
(٣) انظر ترجمة موسى شهوات فى الأغانى (طبع دار الكتب) ٣/٣٥١ والشعر والشعراء ٢/٥٥٨ والخزانة ١/١٤٤ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٢٨٦ .
(٤) أغانى ٣/٣٥٧ والمبرد ص ٣٦٧ .
(٥) المحبر ص ١٥٢ .
(٦) انظر فى ترجمة نصيب أغانى (دار الكتب) ١/٣٢٤ وراجع فهرسه والشعر والشعراء ١/٣٧١ وابن سلام ص ٥٤٤ والاشتقاق لابن دريد ص ١٤٦ ومعجم الأدباء ١٩/٢٢٨ وشواهد العينى ١/٥٣٧ والموشح ص ١٨٩ .

فبشِّرْ أهل مصرَ فقد أتاهم مع النِّيل الذى فى مصرَ نِيلُ
يقول فيحسن القولَ ابنُ ليلى ويفعل فوق أحسنِ ما يقول[١]

وقوله :

لعبد العزيز على قومه وغيرهمُ مِنَنٌ غامره
فبابك أسهلُ أبوابهم ودارك مأهولةٌ عامره
وكفُّك حين ترى السائلـ ين أندَى من الليلة الماطره

ومازال مع عبد العزيز حتى توفى سنة ٨٥ للهجرة ، فبكاه بكاء حارًّا ، وأوصى به من بعده سليمان بن عبد الملك ، فلزمه . ومن قوله فيه :

قِفُوا خبِّرونى عن سليمان إننى لمعروفه من أهل وَدَّانَ طالبُ
فعاجُوا فأثْنَوْا بالذى أنت أهلُه ولوسكتوا أثنتْ عليك الحقائبُ[٢]

وله مدائح فى يزيد بن عبد الملك وأخيه هشام مما يدل على أنه عاش إلى أوائل القرن الثانى . وله مدائح فى بعض ولاة الحجاز من مثل إبراهيم بن هشام المخزومى والى مكة وعبد الواحد النصرى والى المدينة ، وبعض ولاة العراق وقواده مثل بشر بن مروان وعمر بن عبيد الله بن معمر . وكان يعنى بثيابه وطيبه ، وكان كبير النفس ، فلم يتورط فى هجاء ، كما كان عفيفاً ، وله غزل نقى طاهر ، وهو لذلك يُسْلَكُ فى العذريين .

القطامى[٣]

لقبَ غَلَبَ على عُمَيْر بن شُيَيْم التغلبى ، وهو من بنى الفَدَوْكس عشيرة الأخطل ، ومن ثَمّ نشأ نصرانيا . غير أنه فيما يظهر دخل فى الإسلام . وقد اشترك فى الحروب التى نشبت بين قبيلته تغلب وقيس فى أثناء فتنة ابن الزبير ،

(١) ليلى : أم عبد العزيز بن مروان وهى بنت زبان بن الأصبغ الكلبية .
(٢) عاجوا : وقفوا .
(٣) راجع فى ترجمة القطامى أغانى (ساسى) ٢٠/١١٨ وابن سلام ص ٤٥٢ والشعر والشعراء ٢/٧٠١ والخزانة ١/٣٩١ والاشتقاق ص ٣٣٩ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٤٧ ومعاهد التنصيص ١/١٨٠ والموشح ص ١٥٨ . وقد نشر ديوانه فى ليدن سنة ١٩٠٢ ونشرته دار الثقافة ببيروت ، ونشر نشرة محققة ببغداد .

وأسرَه أحد القيسيين فى يوم ماكَسين ، غير أن زُفَر بن الحارث حين عرفه افتكّه من الأسر ، وردّ عليه ما سُلب منه ، وأعطاه مائة من الإبل مما جعله ينوّه به وبصنيعه معه طويلا ، على شاكلة قوله :

ومن يكن استلام إلى ثَوِىٍّ ... فقد أحسنتَ ، يا زُفَرُ ، المتاعا (١)
أأكفرُ بعد رَدِّ المـوت عنّى ... وبعد عَطائك المائةَ الرِّتاعا (٢)
ولم أر مُنْعمين أقلَّ مَنًّـا ... وأكرمَ عندما اصطنعوا اصطناعا (٣)
من البيض الوجوه بنى نُفَيْلٍ ... أبتْ أخلاقهم إلا اتساعا (٤)

وفى هذه القصيدة يتأسى للحروب الناشبة بين تغلب وقيس على ما بينهما من صلات وأسباب ، ويدعو مخلصاً للصلح ووَقْف هذه الحروب المُبيرة التى لا تتوقف رَحاها حينا إلا لتعود أشد التهاماً لأبناء القبيلتين ، يقول :

ألم يحزنْك أن حِبال قيسٍ ... وتغلبَ قد تباينتِ انقطاعا
وكُنّا كالحريق أصاب غاباً ... فيخبو ساعةً ويَشِبُّ ساعا
أُمورٌ لو تدبَّرها حليمٌ ... إذَنْ لنَهَى وهيَّب ما استطاعا

ووفدَ على الوليد بن عبد الملك ، وقيل على عمر بن عبد العزيز ، فقيل له إن الشعر لا ينفق عنده ، وهذا عبد الواحد(٥) بن سليمان سَيبرُّك إن مدحته ، فمدحه ، وأضفى عليه كثيراً من برِّه ونواله . وكان أول ما مدحه به قصيدته :

إنا محيُّوك فاسْلَمْ أيها الطَّلَلُ ... وإن بَليتَ وإن طالتْ بك الطِّيَلُ (٦)

---

(١) استلام : أتى ما يلام عليه . الثوى : الضيف المقيم . المتاع : الزاد .
(٢) يريد بالكفر كفر النعمة وجحدها . الرتاع : جمع رِاتعة .
(٣) المن : الفخر بعمل الخير . يقول إنهم لا يمنون بما يصنعون .
(٤) بنو نفيل : عشيرة زفر وهم من بنى عامر ابن صعصعة ، ويريد باتساع الخلق الكرم وغيره من الشيم الفاضلة .
(٥) انظر فى تحقيق نسب هذا الممدوح وهل هو عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك أو عبد الواحد بن الحارث بن الحكم بن أبى العاص الخزانة ٣/١٢٤ وقارن بأخبار القطامى فى الأغانى وبالقصيدة الأولى فى الديوان .
(٦) الطيل هنا : الأزمنة .

ونراه يضمّنها نظرات فى الحياة وفى الناس وأخلاقهم ، وهو يقترب فى ذلك من ذوق المتنبى فى مدائحه كما نرى فى مثل قوله :

والعيشُ لا عيش إلا ما تَقَرُّ بهِ ... عَيْنٌ . ولا حالَ إلا سوف تنتقلُ
والناسُ من يَلْقَ خيرًا قائلون له ... ما يَشْتهى ولأُمِّ المخطىءِ الهبَلُ
قد يُدْرك المتأنّى بعضَ حاجتهِ ... وقد يكون مع المستعجل الزَّلَلُ

ويُشيد فى القصيدة بقريش ونُصْرتها للرسول صلى الله عليه وسلم وتثبيتها لدعائم الدين الحنيف مما يدل أكبر الدلالة على أن الله أتمّ عليه نعمة الإسلام . يقول :

قومٌ همُ ثَبَّتوا الإسلام وامتنعوا ... قومُ الرسول الذى ما بعده رُسُلُ

ومن أشاد بهم ونوّه بذكرهم أسماء بن خارجة الفزارى . وله فيه أمداحٌ رائعة على شاكلة قوله :

إذا مات ابنُ خارجة بن حِصْنٍ ... فلا هطلتْ على الأرض السماءُ
ولا رجع البريد بغُنْمِ خيرٍ ... ولا حملتْ على الطُّهْر النِّساءُ

ومن أهم ما يميزه فى شعره صفاءُ موسيقاه وحلاوة ألفاظه وعذوبة أنغامه وتمكن قوافيه وجودة مطالعه والمظنون أنه توفّى فى أوائل القرن الثانى للهجرة .

كعب[1] بن معدان الأشقرى الأزدى

من شعراء خراسان الذين برعوا فى المديح ، وهو فارس شجاع له آثار فى حروب المهلّب للأزارقة فى فارس وللترك فى خراسان . وله فى المهلّب ووصف حروبه قصائد كثيرة ، منها قصيدة طويلة فى حروبه للأزارقة تشبه أن تكون ملحمة . وقد روى منها أبو الفرج أطرافاً ، وروى منها الطبرى ثلاثة وثمانين بيتاً[2] وهو فى شعره يحسن حَوْك اللفظ والمعنى جميعاً على شاكلة قوله يمدح المهلب وأبناءه :

---

(١) انظر فى ترجمة كعب الأغانى (طبع دار الكتب) ١٤/٢٨٣ وما بعدها والشعر والشعراء ١/٣٩٧ وما بعدها ومعجم المرزبانى ص ٢٢٦ وراجع الجزء الخامس من الطبرى فى مواضع متفرقة .

(٢) طبرى ٥/١٢٢ .

برّاك الله حين بَراك بَحْرًا ... وفجّر منك أنهارًا غِزارا[١]
بنوك السابقون إلى المعالى ... إذا ما أعظمَ الناسُ الخِطارا[٢]
كأنّهمُ نجومٌ حول بَدْرٍ ... درارىٌّ تكمّل فاستدارا[٣]
ملوكٌ ينزلون بكل ثَغْرٍ ... إذا ما الهامُ يوم الرَّوْع طارا[٤]
رِزانٌ فى الأمور ترى عليهم ... من الشَّيْخِ الشَّمائلَ والنِّجارا[٥]
نجومٌ يُهْتَدَى بهمُ إذا ما ... أخو الظَّلماء فى الغمرات جارا

وتوفّى المهلب ؛ فلزم ابنه يزيد يمدحه ويصف حروبه مع الترك وبرّه ونائله الجزل ، ومن بديع ما قاله فيه :

يَداك إحداهما تَسْقى العدوَّ بها ... سَمًّا وأخرى نَداها لم يزل دِيَمَا

ولما عُزل يزيد عن خراسان لعهد الحجاج ووليها قتيبة بن مسلم الباهلى وانتصر على الترك انتصاراته الرائعة مضى يُشيد به وبانتصاراته بمثل قوله[٦] :

دوَّخ السُّغْدَ بالكتائب حتى ... ترك السُّغْدَ بالعَراء قعودا
فوليدٌ يبكِى لفقد أبيهِ ... وأبٌ موجَعٌ يبكّى الوليدا

وجرّه ذلك إلى التخلص من عصبيته لقبيلته وصاحبها يزيد بن المهلب ؛ ويقال إنه نال منه وثلبه . وكان قبل هذه الفترة من حياته يستشعر عصبية حادة للأزد ، وهى عصبية جعلته يتهاجى هجاء مريراً مع شعراء قبيلة عبد القيس وعلى رأسهم زياد الأعجم ؛ كما تهاجى مع شعراء ربيعة . وكان موقفه مع قتيبة سبباً فى غضب يزيد بن المهلب عليه غضباً شديداً ، فلما ولى العراق وخراسان لعهد سليمان بن عبد الملك طلبه ؛ فهرب إلى عُمان ، وظلّ بها إلى أن ثار يزيد على الأمويين سنة ١٠٢ فأتبعه من قتله .

---

(١) براك : خلقك .
(٢) الخطار : المراهنة .
(٣) نجوم درارى : مضيئة .
(٤) الهام : الرءوس ، يوم الروع : يوم الحرب والخوف .
(٥) رزان : جمع رزين . ويريد بالشيخ المهلب . الشمائل : الطباع . النجار : الأصل والحسب .
(٦) طبرى ٥/٢٥٠ والسغد : جنس من الترك .

زياد[1] الأعجم

مولى لقبيلة عبد القيس ، أصله ومولده ومنشؤه بأصبهان ، وكانت فيه لثغة شديدة سبق أن تحدثنا عنها ، وكان يُحْسن فَنَّ المديح إحساناً رائعاً ، وممن ظلَّ يمدحهم طويلا عمر بن عبيد الله بن معمر والى فارس ، وفيه يقول :

سألناه الجزيلَ فمَا تأبَّى ... وأعطى فوق مُنْيَتِنا وزادا
وأحسنَ ثم أحسن ثم عُدْنا ... فأحسن ثم عُدْتُ له فعادا
أخٌ لك لا تراه الدهرَ إلا ... على العِلاَّت بسَّاماً جوادا

ويُرْوَى أن ابن مَعْمَر عدَّ أبيات هذه القصيدة ، فأعطاه على كل بيت ألفا . وما زال يلزمه حتى توفِّى ، فولى وجهه نحو خراسان ، فمدح عبد الله بن الحشرج والى سجستان ، وتوفِّى فرثاه رثاء حارًّا ، تمثلنا فيما سلف ببيت منه ، وحَدَث أن مدح المهلَّب وعنده كعب الأشقرى والمغيرة بن حَبْناء ، فأمر لهم بجوائز ، وفضَّل زيادا ، ولاحظ — كما أسلفنا — لُكْنته فى قوله :

فَتًى زاده السُّلطان فى الخير رفعةً ... إذا غَيَّر السُّلطانُ كلَّ خليلِ

إذ نطق السلطان « الشلتان » بإبدال السين شيئاً والطاء تاء ، فوهب له غلاماً فصيحاً ينشد شعره . وغاظ صنيع المهلب بزياد المغيرةَ بن حَبْناء وكعباً ، وانتُدب له المغيرة ، فتهاجيا طويلا . ولم يلبث أن تهاجى مع كعب ، وتفوق عليه فى عدة قصائد يقول فى إحداها هاجيا قبيلته :

قُبَيِّلة خَيْرُهـا شَرُّها ... وأصدقُها الكاذبُ الآثِمُ
وضيفهمُ وَسْط أبياتهم ... وإن لم يكن صائماً صائمُ

وهاجى قتادة بن مغرِّب اليَشْكرى . وفى قبيلته هو الآخر يقول :

ويَشْكر لا تستطيع الوفاء ... وتعجز يشكر أن تَغْدرا

---

(١) انظر فى ترجمة زياد أغانى (دار الكتب) ١٥/٣٨٠ وابن سلام ص ٥٥٧ والشعر والشعراء ١/٣٩٥ ومعجم الأدباء ١١/٢٢١ والخزانة ٤/١٩٣ والاشتقاق ص٣٣٤ وراجع أغانى (دار الكتب) ١٣/٨٩ وما بعدها وذيل الأمالى ص ١٠ والجزء الخامس من الطبرى فى مواضع متفرقة .

وكان مُغْرًى بهجاء الوعاظ والفقهاء والنُّسَّاك، ويقال إن الفرزدق همَّ بهجائه حين رآه يُكثر من هجاء المغيرة بن حَبْناء وقبيلته تميم ، فبادره بقوله :

وما ترك الهاجون لى إن هجوته مصَحًّا أراه فى أديم الفرزدقِ
وإنا وما تُهْدى لنا إن هجوتنا لكا لبحر مهما يُلْقَ فى البحر يَغْرَقِ

فتوسل الفرزدق إليه أن يكفَّ عنه . وفى ذلك ما يدل على أنه كان يتقن الهجاء كما كان يتقن المديح والرثاء ؛ ومرثيته للمغيرة بن المهلب من روائعه . وقد توفِّى فى حدود المائة الأولى للهجرة .

٢

شعراء الهجاء

احتدم الهجاء فى هذا العصر احتداماً شديداً ، بتأثير العصبيات القبلية التى اشتعلت — كما مرَّ بنا — نيرانُها فى كل مكان ، ومعروف أن الإسلام دعا إلى نَبْذ هذه العصبيات وحاربها حرباً عنيفة ، غير أن هذا — فيما يظهر — كان مثلا أعلى لم يستطع العرب تحقيقه إلا إلى فترة محدودة ، فلم تكد نيرانها تتحول إلى رماد ، حتى عادت إلى الظهور ، إذ نشبت حرب الرِّدَّة وأشْرع فيها الشعراء ألسنتهم صادرين عن روحهم القبلية ، على نحو ما يُرْوَى عن أبى شجرة السُّلمى وانتصاره للمرتدين من قبيلته سُلَيْم ، وكأن من دخلوا هذه الحرب أرادوا أن يخلعوا عنهم سلطان قريش . وقضى أبو بكر الصديق قضاء مبرما على هذه الفتنة ، ودفع العرب إلى الفتوح ، ولكنهم لا يكادون يهدأون ، حتى تحدث فتنة عثمان وتنشب الحروب بين علىّ وخصومه : طلحة والزبير وعائشة ثم معاوية . وكانت كثرة جيشه من اليمانية وربيعة ، ونراهما تتنافسان فى قيادة حربه بموقعة الجمل ؛ كما تتنافسان فى موقعة صِفِّين ضد معاوية ، ويتبادل شعراؤهما الطعن والتجريح كلٌّ يصور حسن بلاء قومه فى الحرب . والتقت بهذه الأصوات أصوات مُضَرِيَّة كثيرة . وحدث هذا نفسه فى صفوف خصومه ، مما نجد آثاره فى الطبرى وفى

وقعة صفّين لنصر بن مزاحم . وعبثاً حاول علىٌّ أن يُعلّى كلمة الإسلام الذى حاول أن يمحو الدعوات الجاهلية وما اتصل بها من عصبيات ، إذ لم تلبث طائفة كبيرة فى جيشه بعد قبوله للتحكيم أن نظرت فى تولىّ قريش تدبير الأمور فى الأمة ، وأن من حقها جميعاً أن يكون لها الحكم والسلطان. وبسرعة تكونت جماعة الخوارج وشَهرت سيوفها فى وجهه مما اضطره أن يحاربها ويذيقها وبال انتكاسها وخروجها على الجماعة.

ومما لا شك فيه أن موقف معاوية كان سبباً قويًّا من أسباب استشعار جماعته للعصبية القبيلة ، فقد مضى يطالب بحق عشيرته الأموية فى الأخذ بثأر عثمان ، وكأنه أحْيى قاصداً أو غير قاصد الفكرة القديمة التى كانت تجعل حق الثأر للقبيلة والعشيرة . ومعروف أن الإسلام هدم هذا الحق وحوّله من القبائل والأفراد إلى الدولة ، فهى التى تعاقب عليه بما يفرضه دستور القرآن الكريم . وزاد فى استشعار العصبية فى صفوفه أنه كان يعتمد على قبيلة كلب اليمنية ، وكان بينها وبين الأمويين مصاهرات مختلفة ، فإن عثمان تزوج منها بنائلة بنت الفُرافِصة . وتزوج معاوية من مَيْسون بنت بَحْدل ، وهى أم ابنه يزيد ، وكذلك تزوج مروان بن الحكم ليلى بنت زَبَّان بن الأصبغ الكلبية ، وهى ابنة عم نائلة . وقد استغل معاوية فى حربه لعلى ذلك ، لأن الصِّهْر عند العرب كالنسب ، ووسّع استغلاله ، إذ ضمّ تحت لوائه جميع القبائل اليمنية الشامية .

وعلى هذا النحو كانت العصبية القبلية تَسْرى فى أحداث هذه الفترة ، وهدأت الأمور نحو ربع قرن ، حتى إذا توفّى يزيد وجدنا العصبية تَستعر بين القبائل فى الشام والجزيرة وفى البصرة وخراسان . أما فى الشام والجزيرة فاندلعت بسبب نزول قيس فيهما واصطدامها فى أولاهما بكلب والقبائل اليمنية وفى ثانيتهما بتغلب الرَّبَعية . وكانت وفاة يزيد بن معاوية إشارة الوقت لهذا الاندلاع ، فقد بايعت قيسٌ ابنَ الزبير وبايعت اليمنية وتغلب مروانَ بن الحكم ، وسلّ الطرفان سيوفهما فى معارك حامية تحدثنا عنها فى غير هذا الموضع ، وانبعث شعراء كل طرف يفتخرون ويهجون ، بالضبط ، كما كان يفتخر آباؤهم فى الجاهلية ويهجون .

وفى نفس الوقت نجد الحلْفين الكبيرين فى البصرة :حلف تميم وقيس من جهة وحلف الأزد وربيعة واليمنية من جهة أخرى يستشعران العصبية القبلية استشعاراً حاداً . ومرّ بنا فى غير هذا الموضع كيف اصطدم الحلْفان بعد فرار عبيد الله بن زياد عن العراق ، وكيف أفضى الاصطدام إلى القتال ، لولا أن تدارك الأمرَ الأحنفُ بن قيس فرتقَ الفتْق . وقد ظلت نفوس الحلفين تغْلى طوال العصر ، وظل الشعراء يتصايحون صياحهم القبلى حتى لنجد أبا نُخيلة ، وهو ممن أدركوا الدولة العباسية ينظم أرجوزة طويلة يذكر فيها حرب قومه التميمين مع الأزد وربيعة مفاخراً بانتصارهم على شاكلة قوله [1] :

نحن ضربنا الأَزْدَ بالعــراقِ والحىَّ من ربيعــةَ المُرَّاقِ
ضرباً يُقيم صَعَر الأَعنــاقِ بغير أَطمــاعٍ ولا أَرْزاقِ [2]
إلاّ بقايا كرم الأَعْراقِ

ولم تحتدم العصبيات القبلية فى البصرة فحسب ، فقد انتقلت إلى خراسان لسبب طبيعى ، وهو أن أكثر جيوشها كانت تتألف من جُنْد البصرة ، إذ هم الذين ابتدءوا فتحها منذ عهد عمر ، وتوالت بعد ذلك كتائبهم وفرقهم هناك ، فكان طبيعيا أن تنعكس بها نيران هذه العصبيات ، وقد أخذت تزداد تأججاً واشتعالا بعامل المنافسة على قيادة الجيوش وولاية الثغور ، إذ كان الوالى هناك يولّى عماله وقواده من قبيلته وأحلافها ، فإذا تولّى المهالبة مثلا قدّموا رجال الأزد وربيعة واليمن وانتكست قيسٌ وتميم ، وإذا تولى قتيبة بن مسلم الباهلى مثلا رفعتْ قيس وتميم رءوسهما وانتكست الأزد وأحلافها . ولم تقف المسألة عند ذلك فإن القبائل فى الحلف الواحد كثيراً ما اختلفت وتحاربت وتطاحنت بسبب الاختلاف على المغانم وطمعاً فى اكتنازها ، واقرأْ فى أى شاعر ممن عاشوا هناك وترْجمَ له صاحب الأغانى فستراه دائماً يذود عن قبيلته بلسانه ، سواء كان من أصولها أو من مواليها ، على نحو ما مرّ بنا من استعار الهجاء بين زياد الأعجم مولى

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز (طبع دار المعارف) ص ٦٣ .
(٢) الصعر : الميل ، وصعر الأعناق كناية عن الكبر والغطرسة ، وأصله ميل العنق والنظر عن الناس تهاوناً واستكباراً .

عبد القيس وكعب الأشقرى الأزدى ، وكان زياد يهاجى أيضاً المغيرة بن حَبْناء التميمى وقتادة بن مغرِّب اليشكرى وابن عمه أبا جِلدة[١]. وقد يرتفع صوت فى أثناء هذا الضجيج با عتزال هذه الحرب اللسانية وما تَطوى من عصبيات عنيفة على شاكلة قول نهار بن تَوْسعة[٢]:

أبى الإسلامُ لا أبَ لى سواهُ إذا هتفــوا ببكر أو تميم

ولكن مثل هذا الصوت كان يضيع فى غمار هذه العصبيات التى استعلى سلطانها فى العصر استعلاء شديداً . وهو استعلاء سقطت منه آثار مختلفة فى جميع البيئات .

وقد قلنا فيما أسلفنا إن الكوفة شُغلت عن العصبيات القبلية بتشيعها وخصومتها للأمويين ، ومع ذلك فإننا نجد هناك الكميت بن زيد الأسدى يثير معركه حامية مع حكيم[٣] بن عياش الكلبى وهرون[٤] مولى الأزد . وكثيراً ما كانت تُثار معارك بين شعراء العشائر والبطون . ولكنها على كل حال لم تحتدم هناك على نحو ما احتدمت فى خراسان والبصرة . وإذا ولَّينا وجوهنا نحو المدينة وجدنا عبد الرحمن بن حسان بن ثابت يتهاجى مع عبد الرحمن بن الحكم الأموى هجاء مريراً[٥] ، ويقال إنه هجا يزيد بن معاوية وشبَّب بأخته رملة تشبيبا أحفظه ، فأغرى الأخطل بهجائه ، فجهاه وهجا قومه الأنصار ، وأغضب ذلك النعمان ابن بشير . فتعرض للأخطل بهجاء عنيف[٦] :

ويلقانا فى نجد هجاء كثير دار على ألسنة شعراء القبائل ، ولعل من خير ما يمثله تهاجى المرَّار بن منقذ الأسدى ومُساور بن هند العبسى . ومن طريف ما للمرار قوله[٧] :

(١) أغانى (دار الكتب) ١١/٣٢١ .
(٢) الشعر والشعراء ١/٥٢١ .
(٣) أغانى (ساسى) ١٥/١٢ ومعجم الأدباء ١٠/٢٤٧ .
(٤) الحيوان ٧/٧٥ .
(٥) أغانى (ساسى) ١٣/١٤١ والمبرد ص ٢٨٩ .
(٦) انظر فى ترجمة النعمان بن بشير أغانى (ساسى) ١٣/١٤٧ ، ١٤/١١٤ وما بعدها والشعر والشعراء ١/٤٥٦ وقد طبع له ديوان على الحجر فى دهلى ونشره كرنكو مع ديوان أبى بكر بن العزيز .
(٧) أغانى (دار الكتب) ١٠/٣١٨ .

شقيتْ بنو عَبْسٍ بشعر مساورٍ إن الشقيَّ بكل حَبْلٍ يُخْنَقُ

ومرّ بنا ما كان من مهاجاة شبيب بن البَرْصاء الذبيانى وابنى عمه عقيل بن عُلّفة وأرطاة بن سُهَيَّة ومهاجاة ابن ميّادة والحكم الخُضْرى ؛ وكان فى ابن ميّادة[1] شر كثير جعله يهاجى كثيرين من مثل عقبة بن كعب بن زهير وعقال بن هاشم اليمنى وشُقْران مولى بنى سلامان .

وعملتْ بجانب هذه العصبيات أسباب شخصية كثيرة على اندلاع نيران الهجاء ؛ فمن ذلك أن ينتصر أحد الشعراء لزميل فى تهاجيه مع زميل آخر ، حينئذ يرميه بسهام هجائه ، على نحو ما هو معروف عن جرير فى تهاجيه مع الفرزدق إذ كان كثير من الشعراء يقفون مع خصمه ضده . فكان ينصبُ عليهم شُواظ نار . وقد يفاضل أحد الرلاة أو الأجواد بين من يمدحونه من الشعراء فيزيد شاعراً فى جائزته على زميله أو زملائه ، فيغضب المفضول ، ويَسْقط بغضبه على من فضّله كما مر بنا فى تهاجى المغيرة بن حَبْناء ، وزياد الأعجم . وقد يبطئ الممدوح على مادحه بمكافأته ، فيتحول إلى هجائه على نحو ما هجا الحزين الكنانى عمرو بن عمرو بن الزبير بقوله [2] :

مواعِيدُ عمرو تُرّهاتٌ ووجهــه على كل ما قد قلتُ فيــه دليلُ
جبانٌ وفحّاشٌ لئيمٌ مذمَّمٌ وأكذبُ خلق الله حين يقــول

وقد يحرم ممدوح مادحا له من نواله فيسرع إلى هجائه على نحو ما كان من عكرمة بن ربْعى مع المتوكل[3] الليثى ؛ وقد لا تقوم مكافأة الممدوح فى

---

(١) انظر فى ترجمة ابن ميادة الشعر والشعراء ٢/٧٤٧ والمؤتلف ١٧٤ والأغانى (طبع دار الكتب) ٢/٢٦١ وما بعدها والاشتقاق ص ٢٨٧ والخزانة ١/٧٦ والموشح ص ٢٢٨ .

(٢) أغانى دار الكتب ١٥/٣٣٨

(٣) انظر فى ترجمة المتوكل ابن سلام ص ٥٥١ وما بعدها وأغانى (دار الكتب) ١٢/١٥٩ ومعجم الشعراء ص ٣٣٩ وهو صاحب البيت المشهور :

لاتنه عن خلق وتأتى مثــله
عار عليك إذا فعلت عظيم

رأى المادح بما قدّم له من مديحه . فيهجوه ويسرف فى هجْوه على نحو ما صنع الشَّمَرْدَل بهلال[١] بن أحوز المازنى فارس تميم فى عصره غير مدافع . وقد يحجب الممدوح مادحه فلا يأذن له بلقائه ، فيصبُّ عليه نار هجائه ، على نحو ما رَوى الرواة عن حجْب مقاتل بن مسمع بن مالك لأبى جِلدة الشكرى ، فقد تولّى يهجوه بمثل قوله[٢] :

قَرَى ضَيْفَهُ الماءَ القَراح ابنُ مِسْمَع وكان لئيماً جارُه يتذلَّلُ

وقد يمتدح الشاعر أحد العمال ويطلب إليه حاجة فلا يقضيها ، حينئذ ينتقم منه بهجائه ، على نحو ما كان من زياد الأعجم مع عبّاد بن الحصين ، وكان على شرطة القُباع والى ابن الزبير على البصرة ، فسأله حاجةً فازورّ عنه فهجاه وهجا عشيرته الحَبَطات طويلا . وفيها يقول[٣] :

رأيت الحُمْرَ من شَرِّ المطـايا كمـا الحَبطات شَرُّ بنى تميم

وعلى هذا النحو أصبحنا نجد الأجواد والقواد والولاة الذين مرت بنا أسماؤهم والذين طالما مدحهم الشعراء يُهْجَوْن كثيراً أو قليلا ، فزياد وبنو زياد يهجوهم ابن مفرِّغ ، والحجاج يهجوه العُدَيْل[٤] بن الفرخ العجلى ومالك[٥] بن الريب التميمى . وفيه يقول[٦] :

ولولا بنو مروانَ كان ابنُ يوسفٍ كما كان عبدًا من عبيد إيادِ
زمـانَ هو العبد المقرُّ بذُلِّهِ يراوح صبيان القُرَى ويغادى

وكان الفرزدق مولعاً بهجاء كثير من الولاة والعمّال عصبيةً لقبيلته تميم

---

(١) أغانى (دار الكتب) ١٣/٣٥٨ .
(٢) أغانى ١١/٣٣١ .
(٣) البيان والتبيين ٤/٣٧ والخزانة ٤/٢٨٠ .
(٤) أغانى (ساسى) ٢٠/١٣ .
(٥) انظر فى ترجمة مالك الشعر والشعراء ١/٣١٢ وأغانى (ساسى) ١٩/١٦٣ والخزانة ١/٣١٧ ومعجم الشعراء ص ٢٦٥ .
(٦) المبرد ص ٢٩٠ .

أو لأسباب شخصية ، وممن أكثرَ من هجائهم عمر[١] بن هبيرة الفزارى وخالد القَسْرِىّ[٢] ، وفيهما يقول إسماعيل بن عمار[٣] :

بكتِ المنابرُ من فَزارة شَجْوَها فالآن من قَسْرٍ تضجُّ وتجزع

وكان المهالبة ممدَّحين كما قدمنا . ومع ذلك لم يسلموا من هجاء الشعراء وعلى رأسهم الفرزدق[٤] . ومن ولاة الشرق الذين هجاهم غير شاعر قتيبة بن مسلم الباهلى والى خراسان ، وسنرى عما قليل هجاء ثابت قطنة له ، ومنهم عبد الله العبشمى مهجوّ أبى حُزابة[٥] . ونرى أعشى همدان يهجو خالد بن عتَّاب بن ورقاء والى الرَّىّ وأصبهان حين جَفَاه بمثل قوله[٦] :

ويركب رأسَه فى كل وَحْلٍ ويَعْثُرُ فى الطريقِ المستقيمِ

ويهجو أبو نُخَيْلة المهاجر بن[٧] عبد الله والى اليمامة . وفى الحجاز نجد الأحوص مشغوفاً بهجاء ابن[٨] حزم والى المدينة لعمر بن عبد العزيز كما نجد العرجى مشغوفاً بهجاء محمد بن هشام المخزومى والى مكة لهشام بن عبد الملك . ونحن نقف قليلاعند ثلاثة من الهجائين هم ابن مفرِّغ البصرى والحكم بن عَبْدل الكوفى وثابت قُطْنة الخراسانى .

ابن[٩] مفرِّغ

هو يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميرى نشأ بالبصرة ، ويقال إنه كان حليفاً لقريش ، وقيل بل كان مُسترقًّا للضحاك الهلالى فأعتقه . وكان يتقن الفارسية كما أسلفنا فى غير هذا الموضع ، ولعل فى ذلك ما يدل على أنه يرجع إلى أصول إيرانية ، أما لقبه الحميرى فلعل منشأه أنه كان من حَفَدة الفرس الذى نزلوا اليمن قبل الإسلام ، أو لعله يرجع إلى وضعه سيرة لتبعّ .

(١) الديوان ص ٢٨٢ ، ٦٤٧ .
(٢) أغانى (ساسى) ١٩/٢٣ .
(٣) أغانى (دار الكتب) ١١/٣٧٩ .
(٤) انظر الديوان ص ١٠ ، ١٨٧ ، ٢٥٢ ، ٢٦٢ ، ٤١٢ .
(٥) أغانى (ساسى) ١٩/١٥٢ .
(٦) البيان والتبيين ٤/٥٠ .
(٧) أغانى (ساسى) ١٨/١٤٥ .
(٨) أغانى (دار الكتب) ٤/٢٣٧ .
(٩) انظر فى ترجمة ابن مفرغ ابن سلام ص ٥٥٤ والشعر والشعراء ١/٣١٩ وأغانى (ساسى) ١٧/٥١ والطبرى ٤/٢٣٥ والاشتقاق ص ٥٢٩ ومعجم الأدباء ٢٠ / ٤٣ والخزانة ٢/٢١٢ ، ٥١٤

ويظهر أن موهبة الشعر تيقظت عنده مبكرة ، وطبيعى وهو قد نشأ فى البصرة أن يتجه بشعره إلى المديح والهجاء اللذين كانا شائعين فيها على ألسنة الشعراء من حوله ، غير أن الهجاء هو الذى غلب عليه ، وقد صبه صبًّا على أسرة زياد بن أبيه ، وكان الذى دلع لسانه فيها أن سعيد بن عثمان والى معاوية على خراسان أراد استصحابه فآثر عليه عَبَّاد بن زياد والى سجستان ؛ وصحبه فلم يحمده ، وكان عباد طويل اللحية عريضها ، فركب ذات يوم وابنُ مفرغ يسير معه فى موكبه ، فهبَّت ريح ، فنفشت لحيته . فقال ابن مفرغ توا :

ألا ليتَ اللِّحَى كانت حشيشا فنعلفهـا دوابَّ المسلمينا

وعلم عباد بما قال ، فأخذ يجفوه ويتنكر له ، وأخذ ابن مفرغ يظهر ندمه على صُحْبته وتركه لسعيد بن عثمان ، وفى ذلك يقول :

إن تَرْكى نَدَى سعيد بن عثما ن فتى الجود ناصرى وعَديدى
واتِّباعى أخا الوضاعة واللُّؤْ م لنقصٌ وفوْتُ شأوٍ بعيد

وكان على ابن مفرغ دَين ، فاستعدى عليه دائنوه عبَّادا ، فأمر ببيع ماله فى دَينه . وكان فيما بيع عليه عبد يقال له بُرْد وجارية تسمى أراكة ، فبكاهما طويلا بمثل قوله :

وشريتُ بُرْدًا ليتنى من بعد بُرْدٍ كنت هامَه[1]
يا هامـةً تدعو صَدًى بين المُشَقَّر فاليمامه[2]
الريح تبكى شَجْوَهُ والبرق يلمع فى الغمامه[3]

وأخذ يهجو عَبَّادا وأخاه عبيد الله والى العراق وأباهما زيادا هجاء مقذعا ، وكان مما وقف عنده طويلا استلحاق معاوية لزياد ؛ معلناً نكيره على هذا الاستلحاق بمثل قوله :

---

(١) يقال فلان هامة اليوم أو الغد أى أنه يموت فى يومه أو غده . وشريت هنا : بعت .
(٢) كانت العرب تزعم أن الهامة والصدى يطيران من رأس الميت . المشقر : حصن بين البحرين ونجران .
(٣) يقول إن البرق يبكيه لامعاً فى الغمامة .

ألا أبلغْ معاويةَ بن حَرْبٍ مُغَلغِلةً عن الرجل اليمانى
أتغضب أن يُقال أبوك عَفٌّ وترضى أن يقال أبوك زانى
وأشهد أن إلَّك من زيادٍ كإلِّ الفيل من ولد الأتان[1]

وكان أهل البصرة يتغنَّون بهجائه لتلك الأسرة، مما أثار عليه حفيظة عبيد الله، فطلبه وألحَّ فى طلبه . وحدث أن قدم البصرة وعبيد الله غائبٌ عنها فى وفادة على معاوية أو على ابنه يزيد ، فاستجار بالمنذربن الجارود ، وكان عبيد الله مُصْهراً إليه ، فأجاره . وعاد عبيد الله فلم يَرْعَ جوار المنذر ، وأخذ ابن مفرِّغ وسجنه . ورأى أن ينكِّل به ، فأمر — كما مر بنا فى غير هذا الموضع — أن يُسْقَى نبيذاً ويُحْمل على بعير مقروناً إلى هِرَّة وخنزير ويُطاف به فى أزقة البصرة بتلك الصورة المزرية ، واجتمع الصبية حوله فى طوافه يخاطبونه بالفارسية ما هذا ، وهو يرد عليهم بلغتهم هاجيا عبيد الله وجدته سُمَيَّة هجاء مقذعاً . ورُدَّ إلى السجن ، ويقال بل أرسله عبيد الله إلى أخيه عباد لينزل به عقاباً أليما ، فألقى به فى غيابات السجون . وشفعتْ فيه اليمنية عند يزيدبن معاوية ، وألحت فى شفاعتها ، حتى أمر بإطلاقه ، وقد مضى يهجو عَبَّادا وأخاه عبيد الله، وخاصة حين خلا له الجوُّ بفرار عبيد الله إلى الشام عقب وفاة يزيد بن معاوية ، فقد ظلَّ يَسْقط عليه بهجاء مرير . ، وقد توفِّى سنة تسع وستين .

الحكم[2] بن عَبْدل

من بنى أسد ، نشأ بالكوفة ، يمدح ويهجو ، وكان هواه مع بنى أمية ، فلما دخل العراقُ فى طاعة ابن الزبير أمر بنفيه إلى الشام، فقدمها على عبد الملك وحظىَ عنده ، وله فى تحريضه على قتال مصعب بن الزبير وهجائه هو وأسرته أشعار كثيرة من مثل قوله :

ياليت شعرى وليتٌ ربما نفعتْ هل أُبصرنَّ بنى العَوَّام قد شُمِلوا
بالذلِّ والأَسْر والتشريد إنهمُ على البريَّة حَتْفٌ حيثما نزلوا

(١) الإل : القرابة .
(٢) انظر فى ترجمة الحكم بن عبدل أغانى (دار الكتب) ٢/٤٠٤ وما بعدها ومعجم الأدباء ١٠/٢٢٨ وما بعدها وفهرس البيان والتبيين والحيوان .

ولما دخلت العراق فى طاعة عبد الملك رجع إلى وطنه وأخذ يمدح بشر بن مروان وابنه عبد الملك وكثيراً من أجواد بلدته، وكانت فيه فكاهة جعلته يتصعلك فى بعض مدائحه ، إذ نراه يصف لممدوحيه بؤسه وما يملأ بيته من عناكب وحشرات وجرذان[1] . وبذلك كان مقدمة للأدباء الصعاليك الذين ظهروا فى العصر العباسى ، وكانوا سبباً فى نشوء فن المقامات عند بديع الزمان ثم الحريرى.

وكان هجّاء خبيث اللسان ، وممن هجاهم طويلا محمد بن حسان بن سعد ، وكان يتولّى خراج الكوفة ، فكلمه فى شخص ليضع عنه ثلاثين درهما من خراجه فرده رَدًّا قبيحا جعله يَسُلُّ لسانه عليه بقصيدة طويلة يقول فيها :

رأيت محمدا شَرِهـــاً ظلوماً وكنت أراه ذا ورعٍ وقَصْدِ
يقول : أماتنى ربّى خِـداعاً أمـــاتَ اللهُ حَسَّان بن سَعْدِ

وذاعت القصيدة على ألسنة الكوفيين ، حتى كان المُكارى يسوق بغله أو حماره فيقول : عَدّ ، أمات الله حسان بن سعد . وحدث أن خطب ابن حسان فتاة من ولد قيس بن عاصم وسمع بذلك ابن عبدل ، فأخذ يعمل على إفساد هذه الخِطْبة بأشعار كثيرة من مثل قوله :

وما كان حسانُ بن سعدٍ ولا ابنُه أبو المِسْك من أكفاء قيس بن عاصمِ[2]
خذى ديةً منه تكن لكِ عُدَّةً وجِيئى إلى باب الأمير فخاصمى

وكان ذلك سبباً فى نَقْض هذا الصِّهْر ، إذ أنفت للفتاة عشيرتُها وردت ابن حسان ردًّا قبيحاً . وممن هجاهم ابن عبدل عمر بن يزيد الأسدى صاحب شرطة الحجاج ، وله يصف شُحَّه وتقتيره :

جئنا وبين يديه التَّمْرُ فى طَبَقٍ فما دعانا أبو حَفْصٍ ولا كادا

وولى إمارةَ الكوفة لمسلمة بن عبد الملك فى ولايته على العراق عبدُ الحميد ابن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ، وكان أعرج ، وتصادف أن كان صاحب شُرْطته مثله أعرج ، فدخل عليه الحكم ، وكان هو الآخر أعرج ، فأنشده فى أبيات :

---

(١) انظر الحيوان ٥/٢٩٧ وفى مواضع متفرقة. (٢) يكنى ابن عبدل بأبى المسك عن ذكر ابن حسان.

أَلْقِ العَصا ودَعِ التخامُعَ والتمسْ عملا فهٰذى دولةُ العُرْجانِ[1]

فأعطاه عبد الحميد مائتى درهم وسأله أن يكفّ عنه ، ويقول الجاحظ : « لما شاع هجاء الحكم بن عبدل الأسدى لمحمد بن حسان بن سعد وغيره من الولاة والوجوه هابه أهل الكوفة ، واتقى لسانه الكبير والصغير ، وكان الحكم أعرج لا تفارقه عصاه ، فترك الوقوف بأبوابهم ، وصار يكتب على عصاه حاجته . ويبعث بها مع رسوله ، فلا يُحْبَسُ له رسول وتأتيه الحاجة على أكثر مما قدّر وأوفر مما أمل ، فقال يحيى بن نوفل[2] :

عَصا حكمٍ فى الدار أولُ داخلٍ ونحن على الأبواب نُقْصَى ونُحْجَبُ[3]

وللحكم هجاء فكه فى زوجة همدانية كرهها ونفر منها ، ونراه يصورها متغضنة الجلد قبيحة قبحاً شديداً . والمظنون أنه توفىّ فى مطالع القرن الثانى للهجرة .

ثابت[4] قُطْنة

هو ثابت بن كعب من بنى العَتيك الأزديين ، وقيل بل هو مولى لهم ؛ ولقّب قُطْنة لأن سهماً أصابه فى إحدى عينيه فى بعض حروب الترك ، فذهب بها ، فكان يجعل عليها قُطْنة . وهو من فرسان المهلب المبرّزين وقد علا نجمه فى ولاية يزيد بن المهلب الأزدى على خراسان إذ كان يولّيه أعمالا فى الثغور ، فيحسنها وتظهر كفايته وبسالته . وكان قوم من المرجئة هناك يجتمعون ويتجادلون فمال إلى قولهم واعتنقه أشد اعتناق ، وقد مرت بنا أبياته فى الإرجاء فى تضاعيف حديثنا عن الثقافة .

---

(١) التخامع : العرج .

(٢) انظر فى ترجمة ابن نوفل الشعر والشعراء ٢/٧١٧ وأغانى (دار الكتب) ٤/٢٧ والطبرى ٥/٤٥٧ وفهارس البيان والتبيين والحيوان والمبرد . وكان مولعاً بهجاء خالد القسرى وعبد الملك بن عمير قاضى الكوفة .

(٣) البيان والتبيين ٣/٧٤ .

(٤) راجع فى ترجمة ثابت الشعر والشعراء ٢/٦١٢ وأغانى (دار الكتب) ١٤/٢٦٣ والخزانة ٤/١٨٤ والاشتقاق ص ٤٨٣ .

ويلتئم فى ثابت هجاء العصبيات وهجاء الأسباب الشخصية ، إذ كان يتعصب لقومه من الأزْد تعصباً شديداً . وكان أقل حادث يثيره . ونراه مع المهلب فى حروب الأزارقة . ويتعرض بعض بنى الكوّاء اليَشْكُريين للمهلب والأزد بالهجاء ، فينبرى هاجياً له ولعشيرته بمثل قوله :

كل القبائل من بكر نعدُّهم واليَشْكُرِيُّون منهم أَلأَمُ العربِ

ويمضى مع المهلب إلى خراسان ، فيظل بها بقية حياته غازياً مجاهداً فى سبيل الله . ولما وليها يزيد بن المهلب أخلص له وُدَّه ، فكان يمدحه ، وكلما شغبت عليه قبيلة صَبّ عليها هجاءه . وكانت قبائل ربيعة لما حالفت الأزد فى البصرة كما قدمنا تعينها وتشدُّ من أزرها لا فى البصرة فقط ، بل أيضاً فى فى خراسان حين وليها المهلب ثم ابنه يزيد ، ولكن حدث أن استبطأت يزيدَ فى بعض الأمر ، وهى تنزل مع الأزد حواليه ، فشَغبت عليه حتى أرضاها ، وأغضب ذلك ثابت ، فهجاها بأشعار كثيرة يقول فيها :

عصافير تَنْزُو فى الفساد وفى الوَغَى إذا راعها رَوْعٌ جماميحُ بَرْوَقِ[1]

وأنتم على الأَدنى أُسودُ خَفِيَّة وأنتم على الأعداءِ خِزَّانُ سَمْلَقِ[2]

وحين ولى قتيبة بن مسلم الباهلى خراسان بعد عزل الحجاج ليزيد بن المهلب أخذ يزورُّ عنه امتعاضاً لابن المهلب . ولم يلبث أن هجاه هو وقبيلته باهلة حين هُزمت فى بعض حروب الترك وثبتت تميم ، فقال :

توافتْ تميمٌ فى الطِّعان وعَرَّدتْ بُهَيْلَةُ لما عاينتْ معشرًا غُلْبَا[3]

تسامون كعباً فى العُلا وكلابها وهيهات أن تلقوا كلابا ولا كعبا

وأهمُّ شاعر اصطدم به حاجب بن ذبيان المازنى التميمى ، وكان قد أعطاه يزيد بن المهلب جائزة كبيرة لبعض مديحه فيه ، فغبطه عليها ، وأساء له

---

(١) تنزو : تثب . الروع : الفزع . الجماميح : ما نبت على رءوس القصب مما إذا دق تطاير . بروق : نبت ضعيف .

(٢) خفية : أجمة فى سواد الكوفة . خزان : جمع خُزَّر وهو ذكر الأرانب وهى معروفة بالجبن . والسملق : الأرض الجرداء لا شجر بها .

(٣) عردت : فرت . بهيلة : تصغير باهلة .

ببعض القول . فهجاه حاجب . وبادله الهجاء ، ولقّبه فى هجائه بالفيل ، فأصبح ذلك علماً عليه فسمّاه الناس حاجباً الفيل ، وله يقول فى بعض أهاجيه :

أَحاجبُ ! لولا أَن أَصْلك زَيِّفٌ وأَنك مطبوعٌ على اللؤم والكفرِ
وأَنى لو أَكثرتُ فيك مقصِّرٌ رميتُك رمياً لا يَبِيد يَدَ الدهر

وله أشعار كثيرة فى مدح المهالبة ورثائهم ، وقد بكى يزيد حين قُتل فى معاركه مع بنى أمية طويلا ، وهو فى مديحه ورثائه لهم يستشعر عصبية القبيلة استشعاراً قويًّا . وأكبر الظن أنه توفى قبل نهاية العقد الأول من القرن الثانى .

٣

شعراء النقائض

هيأ استعار العصبيات فى البصرة وخراسان لاشتعال الهجاء طوال هذا العصر ، كما هيأ لنمو فن النقائض نموًّا واسعاً . وقد أعدّت لهذا النمو أسباب كثيرة ، يرجع بعضها إلى عوامل اجتماعية وبعضها إلى عوامل عقلية . أما العوامل الاجتماعية فمردّها إلى حاجة المجتمع العربى خاصة فى البصرة إلى ضرب من الملاهى يقطع به الناس أوقاتهم الطويلة . ودائماً حين تنشأ المدن تنشأ معها أوقات فراغ تبعث أهلها على أن يملئوها إما بالدرس والنظر العقلى وإما بلهو يختلفون إليه . وفعلا نهضت — كما رأينا فى غير هذا الموضع — دراسات دينية وعقلية مختلفة ، وكان لا بد أن ينشأ بجانبها نوع من أنواع الملاهى يجد فيه الفارغون من العمل تسليتهم . وقد رأينا المدينة ومكة تُقبلان على الغناء وتجدان فيه حاجة أهلهما من التسلية واللهو . ولم تتجه قبائل العراق هذا الاتجاه ، إذ كانت شديدة الصلة بحياتها البدوية القديمة ، وأخذت نيران الهجاء تشتعل فيها اشتعالا شديداً . حينئذ انبرى الهجّاءون يملأون أوقات الناس هناك بأهاجيهم ، وسرعان ما تحولوا بها إلى نقائض مثيرة . فشاعرُ قبيلةٍ من القبائل ينظم قصيدة من القصائد فى الفخر بقبيلته وأمجادها ويتعرض لخصومها من القبائل الأخرى فينبرى له شاعر

من شعراء تلك القبائل يرد عليه بقصيدة على وزن قصيدته ورَوِيِّها، وكأنه يريد أن يظهر تفوقه عليه من ناحية المعانى ومن ناحية الفن نفسه ، ويتجمَّع الناس من حواليهما يصفِّقون ويهتفون ويصيحون[١] . وبذلك تحولت النقائض من غاية الهجاء الخالص إلى غاية جديدة هى سدُّ حاجة الجماعة الحديثة فى البصرة إلى ضرب من ضروب الملاهى .

وتدخلت فى صنع النقائض بجانب هذه العوامل الاجتماعية عوامل عقلية مردُّها إلى نمو العقل العربى ومرانه الواسع على الحوار والجدل والمناظرة فى النِّحَل السياسية والعقيدية وفى الفقه وشئون التشريع . وعلى ضوء من ذلك كله أخذ شعراء النقائض يتناظرون فى حقائق القبائل ومفاخرها ومثالبها ، وكل منهم يدرس موضوعه دراسة دقيقة ويبحث فى أدلته ليوثِّقها وفى أدلة خصمه لينقضها دليلا دليلا ، وكأننا أصبحنا بإزاء مناظرات شعرية ، وهى مناظرات كانت تتخذ سوق المِرْبَد مسرحاً لها ، فالشعراء يذهبون هناك ، ويذهب إليهم الناس ويتحلَّقون من حولهم ، ليروا من تكون له الغلبة على زميله أو زملائه .

وأهمُّ من وقفوا حياتهم على تنمية تلك النقائض القبلية مستلهمين فيها ظروف العصر وأحداثه السياسية جرير والفرزدق التميميان[٢] . وكان أولهما من عشيرة كُلَيْب اليربوعية ، والثانى من عشيرة مجاشع الدارمية ، وقد ظلا يتناظران نحو خمسة وأربعين عاماً فى عشيرتيهما من جهة وفى قيس وتميم من جهة ثانية ، فإن ظروفا كثيرة جعلت جريراً يقف فى صفوف قيس محامياً عنها ضد خصومها ، وذلك أن عشيرته اليربوعية أسرعت بالبيعة لابن الزبير ، فاتفق هَوَى عشيرته مع هوى قيس ، وتصادف أن كان قد قتل مجاشعىٌّ الزبيرَ بن العوام حين لجأ بعد موقعة الجَمل إلى مجاشع ، وأيضاً تصادف أن لجأت النَّوار زوج الفرزدق حين غاضبته إلى ابن الزبير ، فأعانها عليه ، مما جعل الفرزدق يهجوه[٣] .

---

(١) أغانى (دار الكتب) ١٠/١٥٢ وطبعة ساسى ١٩/١٠٣ .

(٢) شرح أبو عبيدة نقائض الشاعرين ، وحقق الشرح ونشره بيفن سنة ١٩٠٥ فى ثلاثة أجزاء ضخمة . ونشر الشرح نشرة ناقصة بتحقيق الصاوى سنة ١٩٣٥ .

(٣) أغانى (دار الكتب) ٩/٣٢٤ وما بعدها

ونحن لا نصل إلى حكم القُباع والى ابن الز بير على البصرة سنة ٦٦ حتى نجد الشاعرين التميميين ملتحمين فى تلك المناظرة ، يدل على ذلك أننا نجدهما فى نقيضتين لهما يُعلنان نكيرهما على هذا الوالى ، إذ أمر بهدم بيتيهما لما يثيران من ضغائن بين القبائل[١] . ويقول الرواة إن سبب التحامهما أن شاعراً من عشيرة سليط اليربوعية يسمى غسَّاناً هجا جريرا فسقط عليه بهجاء مرير ، فاستغاث منه بالسَّبيث[٢] المُجاشعى ، فأغاثه بمثل قوله فى جرير وعشيرته :

أترجو كُلَيْبٌ أن يجيء حديثها بخيرٍ وقد أعْيَا كليبا قديمُها

فانصبَّ جرير عليه وعلى مجاشع شُواظ نار ، وأفحش بنسائهم إفحاشاً شديداً جعلهن يستغثن منه بالفرزدق . وكان معروفاً بإقذاعه فى الهجاء ، وقصته مع زياد بن أبيه وهربه منه لهجائه بنى فُقَيْم التميميين معروفة ، ووَجَدْنه عاكفاً على حفظ القرآن الكريم ، يريد أن يبدأ سيرة جديدة . فما زلن به يستثرنه قائلات إن جريراً هتك عورات نسائك ، وظللن يوردن عليه ذلك حتى أحفظنه ، فهجا جريرا ، واستطار الهجاء بينهما وامتدا به لا إلى عشيرتيهما فحسب ، بل أيضاً إلى قيس وتغلب وتميم .

وبذلك تكاملت حلقات هذه المناظرة العنيفة بين الشاعرين . وكان كثير من الشعراء ينزلق فيها متحيزا للفرزدق على جرير ، فكان يَشْوى وجوههم ووجوه عشائرهم بنيران هجائه ، فينسحبون منهزمين على شاكلة الرّاعى[٣] ، وكان من سوء حظّه أن فضَّل الفرزدق على جرير بقوله :

يا صاحبىَّ دنا الرَّوَاحُ فسِيرا غلب الفرزدقُ فى الهجاءِ جريرا

وهجاه بقصيدة بائية ، فنظم جرير قصيدة هجاه بها كما هجا الفرزدق ، ويقول الرواة إنه ما زال يُعِيدُها ، حتى عرف أن الناس قد جلسوا مجالسهم

(١) شرح النقائض لأبى عبيدة (طبعة بيفن) ص ٦٠٧ ، ٦٨٣ وانظر أنساب الأشراف للبلاذرى ٥/٢٧٨ .

(٢) انظر فى ترجمة البعيث ابن سلام ص ٣٢٦ وما بعدها وفى مواضع متفرقة والشعر والشعراء ١/٤٧٢ والاشتقاق ص ٢٤١ وابن عساكر ٥/١٢٢ ومعجم الأدباء ١١/٥٢ .

(٣) انظر فى ترجمة الراعى ابن سلام ص ٣٧٢ ، ٤٣٤ وفى مواضع متفرقة والشعر والشعراء ١/٣٧٧ وأغانى (ساسى) ٢٠/١٦٨ وفى ترجمة جرير، وفى الخزانة ١/٥٠٢ والموشح ص ١٥٧

بالمِرْبَد ، وكان له مجلس ، وللفرزدق مجلس ، فدعا بدُهنٍ (طيب) فادَّهن وكفَّ[١] رأسه ، وكان حسَنَ الشَّعْر ، ثم قال : يا غلام أسرِجْ لى ، فأسرج له حصاناً . ثم قصد مجلس الفرزدق والراعى ، فتوجه للراعى يقول له : أبعَشَك نِسْوتك تتكسبن المال بالعراق ، أما والذى نفسُ جرير بيده لترجعن إليهن بِمَيْرٍ[٢] يسوءهن ولا يسرُّهن[٣] ، ثم اندفع فأنشد قصيدته ، وفيها يقول للراعى بيته المشهور :

فغُضَّ الطَّرْفَ إنك من نُمَيْرٍ فلا كَعْباً بلغتَ ولا كِلابا

ولم يلبث الراعى أن انصرف من مجلس الفرزدق يعلوه الخِزْى والصَّغار ، واتجه توا إلى منازل قبيلته نمير فى نجد ، وهو يردِّد : فضَحنا والله جرير ، وهم يقولون : هذا شؤمك .

وإنما أطلنا فى هذا الخبر لنعطى صورة عن شاعر النقائض فى المِرْبَد ، وكيف كان يحتفل بثيابه وزينته . وكيف كان له مجلس يتحلق فيه الناس من حوله ليستمعوا إلى شعره بين الصياح والتهليل ، وأيضاً لندل على قدرة جرير فى الهجاء وكيف كان يفضح من يتعرضون له فضيحة الأبد . ويقال إنه أسقط فى الهجاء ثلاثة وأربعين شاعراً . ويقال بل ثمانين ونيفا ، كانت أقواسهم أضعف من أن ترميه بمثل سهامه المصمية ، وممن ثبت له قليلا ثم اندحر عمر بن لَجأ التَّيْمِىُّ[٤] ، وله يقول :

أتوعدنا ونمنع ما أردنا ونأخذ من ورائك ما نريدُ
ويُقْضَى الأمر حين تغيب تَيْمٌ ولا يُسْتأْذَنون وهم شهود
لئامُ العالمين كرامُ تَيْمٍ وسَيِّدهم – وإن رغموا – مَسُودُ

---

(١) كف رأسه : جمع شعره وضم أطرافه .
(٢) المير : جلب الطعام للأهل والعشيرة .
(٣) انظر فى هذا الخبر أغانى (دار الكتب) ٢٩/٨ .
(٤) انظر فى ترجمة عمر بن لجأ ابن سلام ص ٣٦٣ وما بعدها وص ٤٩٩ وما بعدها وفى مواضع متفرقة والشعر والشعراء ٢/٦٦٢ والاشتقاق ص ١٨٥ والخزانة ١/٣٥٩ وفهرس الجزء الثامن من الأغانى والموشح ص ١٢٧ وما بعدها .

وقد جعله دفاعه عن قيس يصطدم بالأخطل شاعر تَغْلب. وسنعرض لذلك عما قليل . وفى الحق أن الفرزدق أهم شاعر اشتبك معه ، إذ كان على شاكلته يعرف كيف يَبْرى نبال الهجاء المصمية ، وقد تبادل معه نقائض كثيرة ، وظلا سنين طويلة يتحاوران ويتجادلان وكل منهما يغترف من نبع لا ينضب فى نفسه .

ومن يرجع إلى شرح أبى عبيدة لنقائضهما يجده يستعين على شرحه لها بأيام العرب ، ذلك لأن الشاعرين لم يتركا يوماً للقبائل التى يتحدثان عنها دون أن يذكراه . فجرير يتحدث عن أيام يربوع وقيس ، والفرزدق يتحدث عن أيام مجاشع وتميم . وقد يضيف إلى ذلك حديثاً عن أيام تغلب انتصاراً للأخطل . وهما لا يتحدثان عن أيام الجاهلية فحسب ، بل يتحدثان أيضاً عن أيام الإسلام ، وخاصة ما كان بين تميم وقيس فى خراسان ، إذ دفعت تميما الحوادثُ هناك لكى تنكِّل بعبد الله بن خازم السُّلَمى والى ابن الزبير حين ثار على عبد الملك بعد قتل مصعب ، كما نكلت بعد ذلك بقتيبة بن مسلم الباهلى حين ثار على سليمان ابن عبد الملك .

ومعنى ذلك أن جريراً والفرزدق درسا دراسة عميقة تاريخ القبائل العربية فى الجاهلية والإسلام واستلهما هذا التاريخ فى نقائضهما ، بحيث تُعَدُّ وثائق تاريخية طريفة . وكان ذلك من غير شك يصعِّب عمل النقيضة ، لأنها لم تكن هجاء فحسب ، بل كانت أيضا دراسة ، ولم يكن الشاعر يدرس تاريخ القبائل التى كان يحامى عنها فحسب ، بل كان يدرس أيضاً تاريخ القبائل التى يهجوها ليقف على الأيام التى انهزمت فيها ، حتى ينشر مخازيها فى الناس .

وواضح أن أساس الهجاء فى النقائض كان يقوم على العصبيات القبلية ، وقد مَرَّ بنا فى غير هذا الموضع أن هذه العصبيات اختلطت فى العصر الأموى بالسياسة . وهيأ ذلك النقيضةَ لأن تخوض فى مديح الخلفاء والولاة ، بحيث أصبحت لا تحتوى فخراً وهجاء فحسب ، بل تحتوى كذلك مديحاً ، كما تحتوى نسيباً وغزلا . والشاعر فى كل هذه الموضوعات يستلهم الإسلام فى معانيه ، كما يستلهم قدرة العقل العربى الجديدة على الجدال ونقض الدليل بالدليل ، وقدرته أيضاً على التوليد فى المعانى . وبذلك كله أصبحت النقيضة

عند الفرزدق وجرير عملا فنيًّا معقداً . ولعل من الخير أن نقف عند نقيضتين للشاعرين نرى فيهما جملة ما كانا يعرضان له من المعانى ، ونحن نختار للفرزدق نقيضته :

تحنُّ بزوراءِ المدينة ناقتى حَنِينَ عَجُولٍ تبتغى البَوَّ رائم (١)

وهو فى غزلها يستشعر الإسلام خائفاً وجلا من يوم الحساب . ونراه يعتذر مما قد بدَر منه من أشعار تصوِّره فاسقاً ، ويدعوها لغواً من القول ، وإنه ليقول :

ولستَ بمأْخوذ بلَغْوٍ تقوله إذا لم تعمَّدْ عاقدات العزائمِ

وهو يشير بذلك إلى قوله تعالى : (لا يؤاخذكم الله باللَّغْو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقَّدتم الأيمان) ويمضى فيمدح سليمان بن عبد الملك بمثل قوله :

جُعلتَ لأَهل الأَرض نورًا ورحمةً وعَدْلاً وغَيْثَ المُغْبَراتِ القواتمِ (٢)

وكان الحجاج لجّ فى البيعة لعبد العزيز بن الوليد من دون سليمان ، وتوفِّى قبل خلافته ، فنكّل بمن لجُّوا معه من ولاته على المشرق . ونرى الفرزدق يهجو الحجاج هجاء مرًّا صوَّره فيه طاغياً باغياً ، لقى جزاء بغيه وطغيانه من ربه ، فأصابه بما أصاب به ابن نوح حين ارتقى إلى جبل فغرق مع الغارقين وما أصاب به أصحاب الفيل إذ ترميهم طير أبابيل . ولم يزل به حتى جعله من أهل النار . وممن يتلقون كتابهم بالشمال . وخرج الفرزدق من ذلك إلى قتيبة بن مسلم الباهلى وثورته على سليمان بخراسان ، وافتخر بأن تميما بزعامة وكيع بن أبى سُود هى التى قضت عليه . ومضى يتكيل لقيس وشاعرها جرير هجاء مريراً ، متعرضاً لثورة ابن خازم وقضاء تميم عليه ولأيام تغلب على قيس فى الجزيرة . ويتجسَّم له جرير كأنه قيسٌ نفسها فيقول :

---

(١) البو : جلد ولد الناقة يحشى ، ويعرض على أمه فترأمه أى تحن إليه ظنا منها أنه ولدها حقيقة .

(٢) المغبرات القواتم : السنوات المجدبة .

وألقيتَ من كفَّيْك حبـــل جماعةٍ وطاعةَ مهدىٍّ شديد النَّقائمِ [١]

ويسمِّى أصحاب قتيبة مشركين ، يضربون فيهم بسيف سليمان الذى ضرب الله به مشركى قريش فى يوم بدر . ويعيِّر جريراً بما يأخذ من هدايا قيس ، ويعتذر عن حادث نُبُوِّ السيف فى يده مما سنعرض له عما قليل . ويفتخر على صاحبه فخرا عارماً بتميم وأيامها فى الجاهلية وأمجادها العريقة فى الحروب ، ويهجو عشيرته برعيها الحمير ، ومن ثم يسميه ابن المرَاغة (الأتان) فهم ليسوا فرسانا ولا أهل خيل وحروب ، ويقول :

فيا عجباً حتى كليبٌ تسبنى وكانت كليبٌ مَدْرَجاً للشتائم

ودائماً يصف كليبَ باللؤم والدناءة ، ويُفْحش فى النَّيْل من نسائها ومن أم جرير خاصة ، ولا يترك مذمة إلا وَيَلْفح بها جريراً وعشيرته ، وفيها يقول من نقيضة أخرى :

ولو تُرْمَى بِلُؤْمِ بنى كُلَيْبٍ نجومُ الليل ما وضحتْ لسارِ
ولو يُرْمَى بلؤمهمُ نهـارٌ لدنَّس لؤمُهم وضَحَ النهارِ
وما يغدو عزيزُ بنى كليبٍ ليطلب حاجـةً إلا بِجـارِ

ووقف جرير فى الصف المقابل يردّ عليه نقيضته التى لخصناها آنفاً ، فمضى بعد غزلها يتحدث عن الفرزدق وفسقه الذى اشتهر به ، يقول :

لقد ولدتْ أُمّ الفرزدق فاجرا وجاءت بِوَزْوَازٍ قصير القوائم [٢]
وما كان جارٌ للفرزدق مسلمٌ ليأمن قِرْدًا لَيْله غير نائم
أَتيتَ حدود الله مذ أَنت يافعٌ وشِبْتَ فما ينهاك شَيْبُ اللَّهازم [٣]
تتبَّع فى الماخور كلَّ مريبة ولستَ بأَهل المُحْصَنات الكرائم [٤]

---

(١) المهدى هنا سليمان بن عبد الملك ، لقبه بالمهدى كما يلقب الشيعة أئمتهم .
(٢) الوزواز : الخفيف ، كناية عن قصره .
(٣) اللهازم : أصول اللحية .
(٤) المحصنات : العفيفات .

ومضى يتصِمُه بأخته جِعْثِن. وكانت سيدة طاهرة ، ولكنه الهجاء. كما وصمه بأنه قَيْن ابن قَيْن . فهو ليس شريف الأصل كما يزعم . وكان لجده قيون، فرمى جدَّته بهم ؛ كى يغيظه ويُحفظه . ودائماً يردد له جرير ذلك كما يردد قذفه فى أخته ، وأيضاً فإنه كان يردد كما فى هذه النقيضة أن مجاشعاً لم تحفظ للزبير حق جواره ، ولو أنه كان جاراً لقيس أو ليربوع لحفظا له جواره ، كل ذلك ليضرب من حواليه نطاقاً من الذل . وكان الذى قتَل قتيبة بن مسلم الباهلى وكيعُ بن أبى سَوُد اليربوعى . فهو ليس مجاشعيا ؛ إنما هو من قوم جرير ، ومن ثَمَّ يقول له :

فَغَيْرُك أَدَّى للخليفـة عَهْده ... وغَيْرُك جلَّى عن وجوه الأَهاتم[1]

فإن وكيعاً حين خارتْ مجاشعٌ ... كفى شَعْبَ صَدْعِ الفتنة المتفاقم

لقد كنت فيها يا فرزدقُ تابعا ... وريشُ الذُّنابى تابعٌ للقوادم[2]

وبذلك استلّ منه الفخر بحادثة وكيع . وجعلها لقومه اليَرْبوعيين ، لا لمجاشع وشاعرها الفرزدق . وأخذ يفخر بباهلة قبيلة قُتَيبة القيسية وأيامها فى الجاهلية . وعمَّم الفخر بقيس وأيامها ضد تغلب فى الجزيرة . وعيرَّ تغلب بمسيحيتها وما تدفع من خراج لخليفة المسلمين . وكان عمر قَبِلَ منها أن تدفع صدقة كالعرب لا جزية ، ولكن جريراً يأبى إلا أن يسمِّى ما تدفعه جزية . ثَلْبا وتعييراً . ويعود إلى أيام قيس فى الجاهلية ، يعددها . ويعدد مآثرها من انتصارات على تميم وخاصة على دارم .

وتصادف أن كان جرير والفرزدق يصحبان سليمان بن عبد الملك فى أثناء حِجَّة له . وجاءوه بأسرى من الروم . فأمر بجزّ حلاقمهم . وأُعْطى لبعض من صحبوه أسيافٌ يضربون بها رءوس هؤلاء الروم . وعرف بعض القيسيين أن سيُطْلب إلى الفرزدق أن يضرب أحدهم ، فدَسُّوا له سيفاً كليلا لا يقطع . فلما ضرب به لم يصنع شيئاً فى الرومىّ . وانتهزها جرير . فكان يكرر له هذا

---

(١) الأهاتم : من أشراف تميم

(٢) القوادم : الريشات الطويلة فى مقدمة جناح الطائر ، والذنابى ما خلفها من ريشات قصيرة .

الحادث ليضحك أهل المِرْبد عليه، بما يصور من خَوَره وجُبْنه، ومن ثَمَّ يقول له الفرزدق فى نقيضته السالفة :

فهل ضربةُ الرومىِّ جاعلةٌ لكم ... أبًا عن كليبٍ أو أبا مثل دارمِ

ونرى جريرا يردُّ عليه بمثل قوله :

بسيفِ أبى رَغْوَانَ سيف مجاشعٍ ... ضربتَ ولم تضرب بسيف ابن ظالمِ (١)

ضربتَ به عند الإمام فأُرْعِشَتْ ... يداك وقالوا مُحْدَث غير صارم

ضربتَ به عُرْقوبَ ذابٍ بصَوْأَرٍ ... ولا تضربون البَيْضَ تحت الغمائم (٢)

عنيفٌ بهزِّ السيف قَيْنٌ مجاشعٍ ... رفيقٌ بأَخْرات الفُئوس الكَرازم (٣)

وكان الفرزدق كثير الافتخار بيوم صَوْءر . وهو يوم نحر فيه أبوه غالب للناس مائة بعير وقيل أربعمائة، فتجلَّل له جرير هذه المكرمة بعار الجبن ، فأبوه وهو إنما يضربان بمثل هذا السيف الذى نبا فى يده ، عراقيبَ الإبل لا صدور الفرسان . ويقول له إنك قَيْنٌ لا تحسن الضرب بالسيف، بل تفزع وتهلع حين تمسك به ، إنما تحسن الإمساك بالفئوس فهى صناعتك .

وواضح أن جريراً لم يقف بنبوِّ السيف فى يد الفرزدق ووَصْفِه بأنه قين ابن قين عند حد التَّثْلِيب، بل لقد تحول بهما إلى عنصرين من عناصر الإضحاك على الفرزدق . واستخرج من الوصف الأخير أبياتاً مضحكة كثيرة تدل أبلغ الدلالة على ما أصاب العقل العربىَّ عند جرير من قدرة على التوليد فى المعانى ، كما نرى فى مثل قوله :

إذا آباؤنا وأَبوك عُــدُّوا ... أبانَ المُقْرِفاتُ من العِرابِ (٤)

فأَورثك العَــلاةَ وأَورثونا ... رباطَ الخيل أَفنيةَ القِبابِ (٥)

---

(١) ابن ظالم : هو الحارث بن ظالم المرى أحد فرسان قيس فى الجاهلية .

(٢) الناب : الناقة المسنة . البيض : خوذ المحاربين . الغمائم : أصوات الجيوش ، جمع غمغمة .

(٣) أخرات : جمع خرت وهو الثقب فى أعلى الفأس . الكرازم : الفئوس ضخمة الرءوس .

(٤) المقرفات : الهجينات التى لا يخلص نسبها . العراب : الأصيلات فى العروبة .

(٥) العلاة : سندان الحداد .

وقوله :

هو القَيْنُ وابن القين لا قينَ مثله لفَطْحِ المساحى أَو لِجَدْلِ الأَداهِمِ (١)

وقوله :

ورقِّع لجَـدِّك أَكْيـارَهُ وأَصلحْ متاعك لا تُفْسِدِ
وأَدْنِ العَلاة وأَدْنِ القَدومَ ووسِّع لكِيرك فى المَقْعَدِ

وكان جرير يعرف كيف يستخرج من كل شيء هذا العنصرَ من عناصر الإضحاك ، وقد غاظه من الفرزدق انضمامه إلى الأخطل النصرانى ضده ، فأخذ يُضْحك عليه سامعيه فى المِرْبَد بمثل قوله :

وإنك لو تعطى الفرزدق درهمـا على دين نصرانيَّةٍ لتنصَّرا

وقوله :

يحبُّك يوم عيدهمُ النَّصارى ويومَ السَّبْت شِيعتُك اليهودُ

ولعل فى هذا مايدل أكبر الدلالة على أن النقائض عند الشاعرين الكبيرين : جرير والفرزدق إنما كان يُقْصَدُ بها قبل كل شيء إلى تسلية الجماعة العاطلة التى تكونت فى المدينتين الكبيرتين : البصرة والكوفة . وقد بدأت بأسباب قبلية ، ولكنها تطورت إلى مناظرة يُراد بها ملء أوقات العاطلين ، وهى مناظرة كانت تقاطَع بالتهليل والتصفيق . ومن ثم لم تأخذ شكلا جاداً من أشكال الهجاء المعروفة عند العرب . ولو أنها أخذت شكلا من هذه الأشكال لَشُهرت معها السيوف ، وخاصة حين يأخذ جرير والفرزدق فى قَذْف نساء العشائر والأمهات والأخوات . إنها لم تعد هجاء بالمعنى القديم ، بل أصبحت فنًّا يُقْصَدُ به إلى إمتاع الناس فى البصرة وقطْع أوقات فراغهم . ولذلك كان الخلفاء والولاة يستقدمون شاعريها المبرزين ، ليتناشدا أمامهم ابتغاء اللهو والتسلية (٢) . وكل الأخبار تؤكد أن جريراً والفرزدق كانا متصافيين متوادَّين لا متخاصمين متباغضين ، فهما يجتمعان

---

(١) فطح المساحى : تسويتها وتعريضها وهو القيد .
الجدل أيضاً : التسوية . الأداهم : جمع أدهم ، وهو القيد .
(٢) أغانى (طبع دار الكتب) ٨/٢٧ ، ٧٦ .

عند الخلفاء والولاة ، وهما يرحلان إلى دمشق سويًّا ، وإذا نزلت بأحدهما شدة أو حزَبه أمر وقف الآخر معه يمدُّ له يدَ العون ، فإذا طُلب جرير لحرب الأزارقة تشفَّع له الفرزدق [١] ، وإذا هجا الفرزدق خالدا القَسْرِيَّ وحبسه تشفع له جرير عنده [٢] ، وما يزال به يستعطفه ويسترحمه ، لعله يلين له قلبه ويطلقه [٣] . ونراه حين يُلَبِّي القدر قبله يرثيه رثاء حارًّا بمثل قوله :

ولا حملتْ بعد الفرزدق حُـرَّة ... ولا ذاتُ حَمْلٍ من نِفاسٍ تعلَّتِ [٤]

هو الوافد المَحْبُوُّ والراتق الثَّأى ... إذا النَّعْل يوما بالعشيرة زلَّتِ [٥]

فلم تكن المسألة مسألة هجاء حادٍّ إنما كانت مسألة مناظرة فنية بالشعر فى عصبيات القبائل والعشائر ، على نحو ما كان يتناظر فى عصرنا أصحاب الصحافة الحزبية فى آرائهم السياسية مدافعين مهاجمين ، وتظل لهم فى أثناء ذلك صداقتهم . وواضح مما قدمنا أن نقائض جرير والفرزدق نشأت تلبية لحاجة أهل البصرة إلى ما يسدّ فراغهم ويشغل أوقاتهم ، ولم يلبث الشاعران أن حققا لهم كل ما كانوا يبغون من ذلك ، إذ تحولا بفن الهجاء القديم إلى هذه النقائض الجديدة التى استضاءا فيهـا بقدرة العقل العربى الحديثـة على الجدال والتوليـد فى المعانى . وارجعْ إلى أى فكرة عندهما كفكرة أن الفرزدق قَيْن أو فكرة ذل بنى كليب فستَرى كلا منهما يعرض الفكرة التى يقف عندها فى صور كثيرة ، إذ ما يزال يولِّد فيها ، وما يزال يستنبط ويفرِّع ويشعِّب ، وكأنما يريد أن لا يُبْقِى فيها بقية . وانظر فى أى نقيضة يردّ بها أحدهما على خصمه ، فستراه يقف بإزاء كل بيت قاله صاحبه ويردّ عليه صُنْع المتناظرين من أهل اللَّدَد والخصومة فى المسائل العقيدية . فهو يحاول جاهداً أن يبطل كل فكرة اعتمد عليها صاحبه فى هجائه وأن ينقضها نقضاً . ومن ثَمَّ كنا نرى أن نقائض جرير والفرزدق فن جديد ، وهى ككل فن يتصف بهذه الصفة ، سبقتها مقدمات فى العصور

---

(١) أغانى (ساسى) ١٩/٢٨ .
(٢) أغانى ١٩/٤٢ .
(٣) الديوان ص ٧٨ .
(٤) تعلت : تطهرت .
(٥) الثأى : الفساد والضعف . زلت : عثرت .

السالفة ، ولكنها استوت عند الشاعرين فى صورة جديدة ، وهى صورة معقدة ، إذ اعتمدت على دراسة التاريخ القديم والحديث للقبائل ودراسة مفاخرها ومثالبها . كما اعتمدت على استيحاء روح الإسلام وما شاع فى العصر من قدرة على الجدال والحوار ، وأخذت تظهر فيها ظاهرة لم تكن شائعة فى الهجاء القديم ، وهى ظاهرة التنديد على المهجوّ وقبيلته . حتى تُضْحك المستمعين فى المربد . وحتى تمدهم بما يريدون من التسلية ومن التهليل والصياح والصفير والتصفيق . ومن ثَمَّ لم يترك كل من الشاعرين شيئاً يثير الضحك فى خصمه إلا أثاره ، كأن يقول الفرزدق فى جرير :

يُهْدِى الوعيدَ ولا يحوطُ حَرِيمَهُ كالكلب يَنْبَحُ من وراء الدار

أو يقول فى كليب عشيرته :

يستيقظون إلى نُهاق حمارهم وتنام أعينهم عن الأوتارِ (١)

أو يقول :

أتعدل أحسابا لئامًا أدقَّةً بأحسابنا إنى إلى الله راجعُ

وكان جرير يلقاه بمثل قوله :

زَعَم الفرزدق أن سيقتلُ مِرْبَعاً أبْشِرْ بطول سلامةٍ يا مِرْبَعُ

وقوله :

خذوا كُحْلا ومِجْمَرةً وعِطْـرا فلستم يا فرزدقُ بالرجالِ

وهو يتفوق على الفرزدق فى هذا الجانب تفوقاً واضحاً ، ومن ثم كان هجاؤه أكثر مرارة وأشد نكاية .

وساقت الظروفُ الأخطلَ شاعر تغلب ليصطدم بجرير شاعر قيس ومحاميها المناضل عنها . وكان الأخطل — كما قدمنا — يهاجى قيساً فى الحروب التى

(١) الأوتار : جمع وتر وهو الثأر .

تشبث بينها وبين قبيلته منذ موقعة مَرْج راهط سنة ٦٥ وكان شعراؤها يردُّون عليه ، فيُفْحمهم بأهاجيه المقذعة .

وشاءت المقادير أن يلمَّ بالعراق فى ولاية بشر بن مروان ، فاصطدم هناك بجرير ، ويقول الرواة إنه أحفظه إذ فضل الفرزدق عليه [١] وطبيعى أن يفضل الأخطل الفرزدق وينحاز له ضد شاعر قيس بل يُجلّب عليه ، فلم يكن منشأ التفضيل الحكم الفنى من حيث هو ، إنما كان منشؤه الخصومة العنيفة بين تغلب وقيس . وسرعان ما استطار الهجاء بين الشاعرين . وإذا هما يخلّفان طائفة كبيرة من النقائض ، جمعها أبو تمام [٢] . وقد ظلا ينظمانها منذ سنة ٧٣ إلى أن توفىَّ الأخطل حوالى سنة ٩٢ . وهو يُعَدُّ مع جرير والفرزدق فحول الشعر فى هذا العصر . يقول الجاحظ : « والذين هجوا فوضعوا من قدر مَنْ هجوه ، ومدحوا فرفعوا مِنْ قدر مَنْ مدحوا ، وهجاهم قوم فردوا عليهم ، فأفحموهم ، وسكت عنهم بَعْضُ مَنْ هجاهم مخافة التعرض لهم ، وسكتوا عن بعض من هجاهم رغبةً بأنفسهم عن الرد عليهم ، وهم إسلاميون ، جرير والفرزدق والأخطل » [٣]

وجميع الظواهر التى لاحظناها فى نقائض جرير والفرزدق نجدها مجسمة فى نقائض جرير والأخطل ، فهما جميعاً يُعْنَيان بتاريخ القبائل فى الجاهلية والإسلام . وهما يخلطان العصبيات بالسياسة . وقد ساقت الظروف تغلب لتقف فى صفوف بنى أمية ضد قيس ، على نحو ما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع ، كما ساقت الأخطل التغلبى ليكون شاعر بنى أمية منذ عصر معاوية ولسانهم الناطق فى الجزيرة والعراق . وربما كانت قصيدة « خَفَّ القطين » للأخطل أروع نقائضه مع جرير ، ونراه يستهلها بالنسيب ووصف حزنه لفراق أحبته ، وهو يُتْبعهم طرفه مولّها ، حتى ليشبِّه نفسه بالسكران المنتشى ، ويصف الخمر وصفاً قصيراً . وهو موضوع لم يكن جرير ولا الفرزدقُ يلمّان به ، لتحريم الإسلام للخمر . وكان الأخطل نصرانيا ، فانفرد بهذا الموضوع فى شعره .

(١) ابن سلام ص ٣٨٧ ، ٤٠٨ وأغانى ٨/٣١٥ ونقائض جرير والفرزدق ص ٨٧١ .

(٢) نشر صاحانى هذه النقائض فى بيروت سنة ١٩٢٢ عن مخطوطة فى الآستانة ، وقد اشتملت هذه المخطوطة على بعض نقائض الشاعرين ، ومن الممكن أن يستخرج من ديوانيهما نقائض أخرى لهما .

(٣) البيان والتبيين ٤/٨٣ .

على أنه لم يُطْنب فيه هنا ، فقد تركه إلى وصف ظُعُن الحبيبة . مستلهماً زهيراً فى هذا الوصف ومضيفاً إليه تصويراً لأخلاق النساء . وإقبالهن على الشباب وانصرافهن عن الشيوخ . وخرج من ذلك إلى مديح عبد الملك ، فمدحه من حيث هو خليفة ، منوِّهاً بجوده ، ومشبهاً له فى هذا الجود بالفرات ، وهى صورة يتأثر فيها تأثراً واضحاً بصورة النابغة للنعمان بن المنذر فى معلقته . ويمضى فيفصِّل الحديث عن حربه لمصعب بن الزبير ومهارته فى قيادة الجيوش والظفر بخصومه . ويمدح أسرته الأموية منوهاً بشرفها العريق وأنفتها وحمايتها عن الحقوق وبأسها وقوة مراسها وحلمها وصلابتها . ويشيد بوقوفه فى صفوف بنى أمية ونضاله أعداءهم ، كما يشيد بنصر قبيلته لهم ، ويحمل على زُفَر بن الحارث زعيم قيس . وكان قد دخل فى طاعة عبد الملك ، وكأنه يبغى أن يحفظه عليه وعلى قبيلته . يقول :

بنى أُميةَ إنى ناصحٌ لكمُ ... فلا يبيتنَّ فيكم آمنا زُفَرُ

ويستطرد إلى انتصارات تغلب على قيس فى حروبهما بالجزيرة . ويزعم أنه لولا هذه الانتصارات ما دخلت قيس فى طاعة بنى أمية ! وقد مرّ بنا أنها نكلت بتغلب بعد موقعة الحَشَّاك التى قتل فيها فارسها عمير بن الحُباب وأن زُفَر بايع عبد الملك قبل قدومه بجيوشه لحرب مصعب ، لا قهراً من تغلب ، ولكن بُعْدَ نظر . ومضى الأخطل يهجو قيسا حتى إذا بلغ من ذلك كل ما يريد انتقل إلى جرير وعشيرته كليب ، فأقذع فى هجائها إقذاعاً شديداً بمثل قوله :

أما كُلَيْبُ بن يربوعٍ فليس لهم ... عند التفارط إيراد ولا صَدَرُ[1]

مخلَّفون ويقضى الناسُ أمرهمُ ... وهمُ بغيبٍ وفى عمياءَ ما شعروا[2]

ملطَّمون بأعْقار الحِياض فما ... ينفكُّ من دارمىٍّ فيهمُ أَثَرُ[3]

قومٌ أنابتْ إليهم كلُّ مخزيةٍ ... وكل فاحشة سُبَّتْ بها مُضَرُ[4]

على العِيارات هدَّاجون قد بلغتْ ... نَجْرَانَ أو حُدِّثَتْ سَوْءاتهم هَجَرُ[5]

---

(١) التفارط : التقدم للاستقاء من الآبار ، والإيراد : ورود الماء . والصدر : الصدور عنه .

(٢) يريد أنهم لا يستشارون ولا يعبأ بهم .

(٣) يقول إنهم يتلطَّمون حيث يكونون فى مؤخرات الحياض ، تلطمهم دارم عشيرة الفرزدق لعزتها وشرفها .

(٤) أنابت : رجعت وتناهت .

(٥) العيارات : جمع عير وهو الحمار ، يهجوه بأنهم أصحاب حمر لا أصحاب خيل . الهدج : تقارب الخطو .

ويأخذ فى هجاء جرير هجاء عنيفاً يُقْذع فيه إقذاعاً شديداً. وعلى هذه الشاكلة لا يزال الأخطل فى نقائضه لجرير يذمُّ عشيرته. رامياً لها بكل ما يستطيع من نِبال الذل والخسَّة والدناءة ، وهو يتحدث فيها عن مواقع تغلب مع قيس فى الإسلام وما حققت من بعض الانتصارات ، وكثيراً ما يضم إلى ذلك فخراً بأيامها فى الجاهلية ، كما يضم انتصارا للفرزدق وعشيرته دارم . حتى يبلغ من جرير كل ما يريد من هجاء مرير .

وكان جرير ينقضّ عليه كالصَّقْر الجارح ، فيضع تحت عينه مخازى تغلب وهزائمها فى حروبها مع قيس سواء فى يوم ماكَسِين الذى نكَّل بها فيه عمير بن الحُباب أو فى يوم الكُحَيْل الذى نكل بها فيه زفر بن الحارث أو فى يوم البِشْر الذى نكَّل بها فيه الجحَّاف السُّلَمِىّ . ضامًّا إلى ذلك انتصارات قبيلته : يربوع فى الجاهلية وملججا فى هزائم تغلب قبل الإسلام ، مفتخراً عليه افتخاراً عنيفاً بمثل قوله يردُّ عليه نقيضته السالفة :

نحن اجْتَبَيْنَا حياضَ المجد مُتْرَعَةً ... من حَوْمةٍ لم يخالط صَفْوها كدرُ (١)

لم يُخْزِ أولَ يربوعٍ فوارسُهم ... ولا يُقال لهم كلا إذا افتخروا

هل تعرفون بذى بَهْدَى فوارسَنا ... يوم الهُذَيْل بأيدى القوم مُقْتَسَرُ (٢)

خابتْ بنو تغلبٍ إذ ضلَّ فارطُهم ... حَوْضَ المكارم إن المجد مُبْتَدر (٣)

الظاعنون على العمياء إن ظعنوا ... والسائلون بِظَهْرِ الغيب ما الخبر (٤)

الآكلون خبيثَ الزاد وحدهمُ ... والنازلون إذا واراهم الخَمِرَ (٥)

إنى رأيتكمُ والحقُّ مغضبةٌ ... تَخْزَوْنَ أن يُذْكَرَ الجَحَّاف أو زُفَرُ

كانتْ وقائعَ قلنا لن تُرَى أبدا ... من تغلبٍ بعدها عَيْنٌ ولا أثَر

حتى سمعتُ بخنزيرٍ ضَغَا جَزَعاً ... منهم فقلت أرى الأموات قد نُشِروا (٦)

(١) الحومة : معظم الماء .

(٢) ذو بهدى : يوم لبربوع على تغلب وفيه أسرت فارسها الهذيل بن هبيرة .

(٣) الفارط : الذى يتقدم قبل الإبل ليملأ لها الحوض .

(٤) يريد أنهم لايعرفون الأمر إلا تدبراً ، فهم لا يُسْألون فى شىء وهم يَسْألون عن أخبار الناس.

(٥) الخمر : الموضع المستتر ، يقول إنهم ينزلون به فراراً من الضيفان والحقوق التى تلزمهم .

(٦) نشروا : حيوا وبُعثوا .

وواضح أنه يردُّ على معانيه معنىً معنىً ، وقد لقبه فى البيت الأخير بأنه خنزير إشارة إلى أنه نصرانى ، وكان يسقط عليه من هذا الجانب دائماً ، وهو يمضى فى نفس هذه النقيضة . فيقول .

رِجْسٌ يكون إذا صَلَّوْا ، أذانُهم ... قَرْعُ النواقيسِ لا يدرون ما السُّوَرُ[1]

وما لتغلبَ إن عَدَّتْ مساعِيَها ... نجمٌ يضيءُ ولا شمسٌ ولا قَمَرُ

الضاحكين إلى الخنزير شهوتَه ... يا قُبِّحَتْ تلك أفواها إذا كَشروا[2]

والمُقْرعين على الخنزير مَيْسِرَهُمْ ... بئس الجَزورُ وبئس القوم إذ يَسَروا[3]

جاء الرسول بدين الحق فانتكثوا ... وهل يضيرُ رسولَ الله أن كفروا

وكان الأخطل إذا سمعه يقول ذلك وشبهه انْجَحَر ، ولم يستطع له جوابا ، ومن ثم كان جرير يقول إننى أُعِنْت عليه بكفره . وأُعين عليه أيضاً بمهارته فى التنديد على خصمه ، ومما يجمع الجانبين جميعاً قوله فى نقيضة ثانية :

قَبَّح الإلهُ وجوه تغلبَ كلما ... شَبَحَ الحجيجُ وكبَّروا إهلالا[4]

عَبدوا الصَّليب وكذَّبوا بمحمدٍ ... وبجَبْرَئيل وكذَّبوا مِيكالا

المُعْرسين إذا انْتَشَوْا ببناتهم ... والدَّائبين إجارةً وسؤالا[5]

والتغلبيُّ إذا تُنُبِّح للقِرَى ... حَكَّ استه وتمثَّلَ الأمثالا[6]

ولو أنَّ تغلب جمَّعتْ أحسابها ... يوم التفاضل لم تزنْ مثقالا

نُبِّئْتُ تغلب يَنْكحون رِخالَهم ... وترى نساؤهم الحَرام حلالا[7]

لا تطلبنَّ خوُولةً فى تغلبٍ ... فالزَّنْجُ أكرمُ منهمُ أخوالا

---

(١) يريد سور القرآن الكريم .

(٢) يريد أنهم إذا نظروا إلى الخنزير ضحكوا شهوة للحمه .

(٣) الميسر : اللعب بالقداح على الجزور وهو ما يذبحونه من بعير أو ناقة . يقول إنهم نصارى ولذلك ييسرون ويقامرون على الخنزير .

(٤) شبح : رفع يديه بالدعاء . الإهلال : رفع الصوت .

(٥) يقول إنهم بين أجير وسائل .

(٦) تنبح : كانوا ينبحون فى الظلام إذا ضلوا لترد عليهم كلاب الحى ، فيستهدون بها للقرى وهو الطعام والضيافة .

(٧) الرخال : أولاد الضأن .

ويقول فى نقيضة ثالثة :

إن الذى حَرم المكارم تَغْلبــا جعل الخلافة والنبوة فينــا
مُضَرٌ أبى وأبو الملوكِ فهل لكم يا خُزْرَ تغلبَ من أبٍ كأبِينا[1]
هذا ابنُ عَمىٍّ فى دمشقَ خليفةً لو شئتُ ساقكمُ إلىَّ قَطينا[2]

وما زالا يتهاجيان حتى حضر الأخطلَ الموت ، فقيل له ألا توصى ؟ فقال تَوًّا :

أوصِّى الفرزدقَ عند المماتِ بِأُمِّ جــريرٍ . عيــارها[3]

ولم يكد يسمع بذلك جرير ، حتى نظم فيه هجاء عنيفاً من وزن هذا البيت وقافيته يقول فيه :

وزار القبورَ أبو مالكٍ فأصبح ألأم زوَّارهــا[4]

والحق أن جريراً كان يتفوق على خصميه جميعاً فى الهجاء ، وقد شهد له الأخطل بذلك ، إذ قال للفرزدق فيما يَرْوى الرواة : «إن جريرًا أُوتى من سير الشعر ما لم نُؤْتَهُ ، قلت أنا بيتاً ما أعلم أن أحدا قال أهْجى منه ، قلت :

قومٌ إذا اسْتَنْبَحَ الأضيافُ كَلْبَهُمُ قالوا لأمهم بُولى على النار

فلم يَرْوه إلا حكماءُ أهل الشعر ، وقال هو :

والتغلبىُّ إذا تُنُبِّحَ للقِــرَى حَكَّ اسْتَهُ وتمثَّل الأمثالا

فلم تبق سقاةٌ ولا أمثالها إلا رَوَوه[5] » . ولعل من الخير أن نلمّ بحياة هؤلاء الشعراء الثلاثة وأشعارهم ، إذ عدَّهم الرواة والنقاد فحول هذا العصر ومبرِّزيه فى الهجاء والمديح جميعاً .

---

(١) الخزر : ضيق فى مؤخر العين ، يكنى به جرير عن اللؤم .
(٢) القطين هنا : الخدم والعبيد .
(٣) أعيار : جمع عير وهو الحمار .
(٤) أبو مالك : كنية الأخطل .
(٥) أغانى ٨/٣١٨ .

٤

الأخطل [١]

واضح مما قدمنا أن الأخطل من قبيلة تغلب ، وهى إحدى القبائل العربية الكبيرة التى كانت تكوِّن مجموعة قبائل ربيعة ، وكانت تنزل فى الجزيرة ، وتمتدُّ بعض عشائرها جنوباً إلى الحيرة بغرباً إلى الشام، وشرقاً إلى أذربيجان . وكان لها قديماً حروب مع أختها بَكْر جَلَّى فيها المهلهل. وأخرى مع أمراء كندة وأمراء الحيرة ، وقصة قَتْل فارسها وشاعرها عمرو بن كلثوم لعمرو بن هند صاحب الحيرة مشهورة . وقد اعتنق جمهورها فى الجاهلية النصرانية على مذهب اليعاقبة . ولما فتحت الفتوح لجَّتْ فى أول الأمر مع الفرس والروم؛ وسرعان ما اضطُرَّت إلى الدخول فى طاعة الخلافة الإسلامية لعهد عمر بن الخطاب . واستغاثت به أن يضع عنها الجزية ، فوضعها عنها . وقَبِلَ منها أن تؤدِّى الصدقة أسوةً ببقية العرب . ودخلت طائفة منها فى الإسلام ، ولكن كثرتها ظلت نصرانية . ونرى فريقاً منها يُعين معاوية فى حروبه مع على بصِفِّين ، ويلمع من بينهم اسم كعب بن جُعَيْل ، وهو شاعر مجيد ، اعتنق الإسلام ، وكان أحدَّ الألسنة فى جيش معاوية على خصومه [٢] :

وقد مضت تغلب بعد صِفِّين تَحْطب فى حبل الأمويين ، من سفيانيين ومروانيين ، فإن قبائل قيسية كما قدمنا نزحتْ إلى منازلها مع الفتوح وزاحمتها فى

---

(١) انظر فى ترجمة الأخطل أغانى (دار الكتب) ٨/٢٨٠ وكذلك فى ترجمة جرير ٨/٣ وما بعدها وفى خبر الجحاف ويوم البشر ١٢/١٩٨ وما بعدها ، وراجع الشعر والشعراء ١/٤٥٥ وابن سلام ص ٣٨٦ وما بعدها وفى مواضع متفرقة وخزانة الأدب ١/٢٢٠ والموشح ص ١٣٢ والاشتقاق ص ٣٣٨ وكتاب الأب لامانس : Le Chantre des Omiades والأخطل شاعر بنى أمية للسيد مصطفى غازى وانظر أشعاره نقائض جرير والأخطل وديوانه نشر صالحانى .

(٢) انظر فى أشعار كعب بصفين واقعة صفين لنصر بن مزاحم ص ٥٦ وفى مواضع متفرقة . وانظر فى ترجمة كعب ابن سلام ص ٤٥٨ وما بعدها وفى مواضع مختلفة (انظر الفهرس) والشعر والشعراء ٢/٦٣١ ومعجم الشعراء ص ٢٣٣ والخزانة ١/٤٥٧ وراجع فهرسى الطبرى والأغانى .

مواردها الاقتصادية ، ولم تلبث بعد وفاة يزيد بن معاوية أن بايعت ابن الزبير فاصطدمت مصالح الطرفين الاقتصادية والسياسية . ولم تكد تتقدم بهما الأيام فى أثناء فتنة ابن الزبير ، حتى سَلاَّ سيوفهما ، واحتدمت المواقع بينهما ، إلى أن دخلت قيس فى طاعة عبد الملك وتكافَّت القبيلتان عن المغازى فى الجزيرة .

وفى هذه القبيلة وفى فرع منها يسمى جُشَم بن بكر وفى عشيرة من هذا الفرع تسمى بنى الفَدَوْكس وُلد الأخطل فى بادية الحيرة حوالى سنة ٢٠ للهجرة . وكانت أمه مثل أبيه نصرانية ، وهى من قبيلة إياد ، ومن ثَمَّ نشأ نصرانيًّا . وظل حياته على دينه ، فلم يدخل فى الإسلام . وفى أخباره أنه كان يُكثر الشِّجار فى صباه مع زوج أبيه فلقبته دَوْبلا ، والدوبل الحمار الصغير . وتزوج أبيه بامرأة غير أمه مخالفاً بذلك العقيدة المسيحية يدل على أن نصرانيته كانت رقيقة ، وكذلك كانت نصرانية ابنه ، فإننا نراه يطلِّق زوجته ، ويتزوج بأخرى ، كما نراه يتردد على دور القيان . وقد استيقظت فيه موهبة الشعر مبكرة . واقترن بها سَفَهٌ شديد ، فكان يُكثر من هجاء الناس . ولذلك لقبوه أو لقبه شاعر عشيرته كعب بن جُعَيْل الأخطلَ ومعناه السفيه . أما اسمه فغياث ، وكان يكنى بأبى مالك وهو أكبر أبنائه .

ويحاول الاتصال بمعاوية وابنه يزيد ، لينال جوائزهما وتواتيه الفرصة ، فإن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت كان يهاجى عبد الرحمن بن الحكم الأموى ويتعرَّض لنساء بنى أمية . وكان ممن تعرض لهن رملة بنت معاوية إذ تغزل بها غزلا مفحشاً ، وبذلك كان أول من اتخذ الغزل سلاحاً للهجاء السياسى . ومعروف أن الأنصار كانوا مغاضبين لبنى أمية منذ وقوفهم مع على فى صِفِّين . وحاول يزيد بن معاوية نفسه أن يردَّ عليه ، فاستعلاه ابنُ حسان . فقال يزيد لكعب بن جُعَيْل : أجبْه عنى واهْجُه . فقال : « أرادَنى أنت إلى الإشْراك بعد الإيمان . لا أهجو قوماً نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكنى أدلك على غلام منا نصرانى ، كأن لسانه لسان ثَوْر ، يعنى الأخطل » . فأرسل إليه يزيد ، فقدم عليه ، فقال له : اهجهم ، فقال له كيف أصنع بمكانهم وسابقتهم

فى الإسلام ؟ أخافهم على نفسى ، فقال يزيد : لك ذمة أمير المؤمنين وذمتى ، فنظم فى هجائهم قصيدته التى يقول فيها :

ذهبتْ قريشٌ بالمكارم والعُـلا واللُّـؤْم تحت عمائم الأنصارِ

وغضب النعمان بن بشير الأنصارى ، وكان ممن صحبوا معاوية فى حروبه ضد على وولاّه الولايات وأكرمه ، فجاء إليه يشكو له هجاء الأخطل لقومه ، فقال ما حاجتك؟ قال لسانهُ ، فقال معاوية ذلك لك . وعلم الأخطل ، فاستغاث بيزيد ، فدخل على أبيه ، وقال له : إنى جعلتُ له ذمتك وذمتى ، إذ ردّ عنى ، فقال معاوية للنعمان : لا سبيل إلى ذمة يزيد . وردّ النعمان على الأخطل — كما أسلفنا — ولكن الهجاء لم يستطر بينهما ، وكأن الأخطل انسحب من المعركة سريعاً خوفاً على نفسه . ومنذ هذا التاريخ يصبح الأخطل شاعر بنى أمية ، فهو يعيش لهم يمدحهم ، وهم يُغْدقون عليه . وليس فى ديوانه مديح لمعاوية ، ويظهر أن مديحه له سقط من الديوان ، فإن المرتضى فى أماليه روى له فيه هذين البيتين [١] :

إذا متّ مات العزُّ وانقطع الغِنَى فلم يبق إلا من قليلٍ مصرَّدِ[٢]
ورُدَّتْ أكفُّ الراغبين وأمسكوا من الدين والدنيا بِخِلْفٍ مجدَّدِ[٣]

وفى ديوانه مدائح مختلفة ليزيد وأخيه عبد الله ولابنه خالد ، ونحسُّ فى قصائد الأولين ضرباً من الدعوة السياسية لبنى أمية ، إذ لا ينسى أن ينوّه بانتصار معاوية فى صِفّين وأن الله اختار بيتهم للخلافة ، على شاكلة قوله :

تَمَّتْ جُدودهم واللهُ فضَّلهم وجَـدُّ قوم سواهم خامِلٌ نَكِدُ
ويوم صِفّين والأبصارُ خاشعةٌ أمدَّهم — إذ دعوا من ربهم — مَدَدُ
وأنتم آلُ بيتٍ لا [illegible] بَيْتٌ إذا عُدَّتِ الأحسابُ والمَدَدُ

[illegible]

ويظهر أنه لم يكن يقيم بدمشق طويلا ، فقد كان يفد عليها وفوداً ، وسرعان ما يعود إلى منازل قومه فى الجزيرة ، يدلُّ على ذلك أكبر الدلالة أننا نجده فى الفترة التى احتدمت فيها المعارك بين تغلب وقيس واقفاً فى صفوف قومه يناضل عنهم الراعى وابن الصَّفَّار المحاربى وابن الصَّعِق وغيرهم من شعراء قيس. ومرَّ بنا أن القبائل اليمنية فى الشام وعلى رأسها كلب بايعت مروان بن الحكم . بينما نَشزت عليه القبائل القيسية إذ كان هواها مع ابن الزبير ، وسرعان ما اصطدم الطرفان فى موقعة مَرْج راهط . وانتصرت كلب وأخواتها انتصاراً حاسماً . وكانت تغلب قد أعانتها فى تلك الموقعة ، ومضت تعلن ولاءها لمروان ثم لابنه عبد الملك ، وأخذت تتحرش بها قيس فى الجزيرة ، فنشبت بينهما سلسلة معارك حَمِىَ فيها وطيس الحرب ، وأُشْرِعت فيها ألسنة الشعراء على نحو ما أشرعت ألسنة الشجعان ، وكان الأخطل أهم لسان أُشْرِع فى تغلب على نحو ما أسلفنا فى الحديث عن نقائضه .

وما زال عبد الملك يستنزل زُفَر بن الحارث وغيره من زعماء قيس ، ليأمن طريقه إلى مصعب بن الزبير . ويُذْعنون ويدخلون فى طاعته ، فتهدأ الحروب الناشبة بين قيس وتغلب ، وتمر بهما فترة سلام . ويعود عبد الملك إلى دمشق مظفَّراً ، ويحاول فى سنة ٧٣ أن يصلح بين الفئتين ، فيستقدم زعماءهما إلى دمشق ويختصمون عنده ، ويلمع اسم الأخطل فى هذا الاختصام ، إذ يدخل على عبد الملك بن مروان وعنده الجَحَّاف السُّلَمِىّ ، فينشد :

أَلا سائلِ الجحَّافَ هل هو ثائرٌ بقَتْلَى أصيبتْ من سُلَيْمٍ وعامرِ
أجحاف إن نهبِطْ عليك فتلتقى عليك بحورٌ طامياتُ الزواخـــر

ووثب الجحاف يَجُرُّ مُطْرَفَهُ غضباً ، وذهب توًّا إلى قومه فى الجزيرة ، فجمع فرسانهم وأغار بهم على تغلب ليلا فقتل فيها مقتلة عظيمة ، وَبقَر من النساء من كانت حاملا . ومن كانت غير حامل قتلها . وتسمى تلك المعركة

الجحاف بعد تلك الوقعة إلى الروم ، إلى أن سكن غضب عبد الملك وأمّنه ، فعاد على أن يؤدّى الحمالات عما سفك من دماء . ونرى الأخطل يتضوّر من هذه الوقعة تضورا شديداً ، حتى لنراه يهدد بنى أمية بانصراف تغلب عنهم ، إن لم يأخذوا لهم بثأرهم ، يقول :

لقد أوقع الجحّافُ بالبِشْر وقعةً ... إلى الله منها المشتكى والمعوَّلُ
فسائلْ بنى مروانَ ما بالُ ذمّةٍ ... وحَبْلٍ ضعيفٍ لا يزال يوصَّلُ
فإلا تغيِّرها قريشٌ بملكها ... يَكنْ عن قريش مُسْترادٌ ومَزْحَلُ[1]

واستطاع عبد الملك أن يَرُمّ الفتقَ ويُحكم الصلح بين الفئتين . ويعود الأخطل إلى رحابه ويحلّ منه منزلا عليًّا ، إذ يصبح شاعره الأثير على الرغم من نصرانيته ، ويقول الرواة إنه كان يَسْتُلُ بين يديه « وعليه جُبة خزّ وحرز خزّ ، فى عنقه سلسلة ذهب ، فيها صليب ذهب ، تنفُض لحيته خمرا[2] »

وعصْرُ عبد الملك يُعَدُّ العصر الذهبى للأخطل ، فقد نزل منه منزلة الشاعر الرسمى للدولة ، وآثره على جميع معاصريه من الشعراء ، وأمر من يُعْلن بين الناس أنه شاعر بنى أميــة وشاعر أمــير المؤمنين . وفى الأغانى أخبــار كثيرة تصور ذلك . ونرى مدائح الأخطل لعبد الملك حينذاك تمتلئ بالفخر بقومه وما قدّموا من خدمات لبنى أمية . كما تمتلئ بالدعوة السياسية للأمويين ، وهى دعوة ينال فيها من خصومهم أمثال الزبيريين . كما ينال من قَيْس وشاعرهم جرير ، ومن خير ما يصور ذلك قصيدته « خَفَّ القَطينُ » التى أسلفنا الحديث عنها ، وقد أُحكم نَسْجها حتى لتتوهج بعض أبياتها توهجاً على مثال قوله فى الأمويين :

حُشْدٌ على الحق عَيَّافو الخَنا أُنُفٌ ... إذا أُلمَّتْ بهم مكروهةٌ صبروا
وإن تدجَّتْ على الآفاق مُظْلمةٌ ... كان لهم مخرجٌ منها ومُعْتَصَرُ[3]

---

(١) بملكها : بتدرتها . مسترادّ : مرعى . مزحل : من زحل عن مكانه إذا زال عنه وتنحى .
(٢) الأغانى (دار الكتب) ٨/٢٩٩ .
(٣) تدجت : أظلمت . معتصر : ملجأ .

أعطاهم اللهُ جَدًّا يُنْصَرون بهِ لا جَدَّ إلا صغيرٌ بعدُ مُحْتَقَرُ[١]
شُمْسُ العداوة حتى يُسْتقادَ لهم وأعظمُ الناسَ أحلاماً إذا قدروا[٢]

والأخطل فى مديحه لا يقل براعة ومهارة عن الفرزدق وجرير ، بل لاشك فى أنه يتقدم أولهما إذ كانت نفسه صلبة ،وكان يعتز بآبائه اعتزازاً شديداً ، فلم يبرع فى المديح . إنما برع فى الفخر . أما جرير فكانت نفسه لينة ، ومن ثَمَّ يُعَدُّ هو والأخطل فى المديح فرسى رهان . وإن كنا نلاحظ فى الوقت نفسه أن مدائح جرير أكثر عذوبة ، إذكان يتفوق على خصميه جميعاً فى حلاوة الألفاظ وجمال النغم ورشاقة اللفظ ونعومته . أما الأخطل فيمتاز برصانة الألفاظ وفخامتها وجزالتها ، ومدائحه فى عبد الملك تُعَدُّ درره الشعرية ، وهو فيها يكثر من أن الله اصطفاه لأمته على شاكلة قوله :

وقد جعل الله الخلافة فيكمُ بأبيض لا عارى الخوان ولا جَدْبِ
ولكن رآه اللهُ موضعَ حقِّها على رغم أعداءٍ وصَدَّادةِ كُذْبِ[٣]

ونراهُ يلمُّ فى هذه الفترة من حياته بالكوفة والبصرة كثيراً يمدح ولاتهما وأجوادهما من مثل خالد بن عبد الله بن أسيد الأموى ، وبشر بن مروان والحجاج ، وسماك الأسدى ، وهو من أجواد الكوفة.ونراه ينوِّه بمصقلة بن هبيرة الشيبانى أحد قواد طبرستان ،كما ينوه بعكرمة بن ربْعى الفياض وجوده الغَمْر ، ومن قوله فيه :

إن ابن رِبْعِيٍّ كفانى سَيْبُه ضِغْنَ العدوِّ وعِذْرَةَ المُحْتالِ[٤]
وإذا عدلتَ به رجالاً لم تجدْ فَيْضَ الفُرات كراشح الأَوْشال[٥]

ومن نوَّه بهم جرير بن عبد الله البَجلى وجدار بن عتَّاب التغلبى وهمام بن مطرف .

---

(١) الجد : الحظ .
(٢) شمس : جمع شموس وهو العسير فى عداوته . استقاد له : أعطاه مقاودته وذمامه ، فخضع وذل .
(٣) كذب : جمع كذوب .
(٤) السيب : العطاء . العذرة : الاعتذار ، يشير إلى من يسألهم فيعتذرون .
(٥) عدلت : وزنت . الأوشال : جمع وشل وهو الماء القليل . والراشح : الذى يسيل فى قلة.

وتُطْوى صفحة حياته الزاهية إذ يتوفىَّ عبد الملك . ويخلفه ابنه الوليد ، فيأفل نجمه ، إذ يُقْصيه عنه ، ويقرِّب منه شاعراً شاميًّا مسلماً هو عدى بن الرِّقاع العاملى ، وبذلك انزوى الأخطل ، ولم يعد له كبير شأن . وقد مدح الوليد ، ومدائحه فيه فاترة .

وعلى نحو ما كان الأخطل يجيد المديح كان يجيد نعت الخمر ودِنانها ونَداماها ، ويطيل المديح فى عِتْقها والسرور بشربها ، يقول :

صهباء قد كلفتْ من طول ماحُبِستْ ... فى مخدعٍ بين جنَّات وأنهارِ[1]

عذراء لم يَجْتَل الخُطَّاب بهجتها ... حتى اجتلاها عبادىٌّ بدينارِ[2]

واقرأ له القصيدة الأولى فى ديوانه ، فستراه يصور فيها زقاق الخمر تصويرا بديعاً ، إذ يقول ،

أناخوا فجَرُّوا شاصِياتٍ كأنها ... رجالٌ من السُّودان لم يَتَسَرْبَلوا[3]

ويصف تمشيها فى دمه وجسمه وعظامه ، فيقول :

تدبُّ دبيبـــا فى العظام كأنه ... دَبيبُ نِمالٍ فى نَقًا يتهيَّلُ[4]

ويَرْسم صورة المنتشى بها نَشْوة تفقده حسه ووعيه . على هذا النحو :

صريعُ مُدام يرفع الشَّرْبُ رأْسه ... لَيْحيَا وقد ماتتْ عظامٌ ومَفْصِلُ

نُهاديه أحيانا وحينًـــا نجرُّهُ ... وما كاد إلا بالحشاشة يَعْقِلُ[5]

إذا رفعوا صدْرا تحامل صدره ... وآخرُ مما نال منها مخبَّل

وكان الأخطل شغوفاً بالخمر شغفاً شديداً ، حتى لنراه يذكر فى حديث له مع عبد الملك أنها هى التى تمنعه من إعلان إسلامه[6] . وفى أخباره وأشعاره ما يدل على أنصياعه لدينه أحيانا ، فقد كان يتمسَّح بالقساوسة تبركاً ، وكانوا إذا أنزلوا به عقاباً خضع لهم واستكان . ونراه يذكر الصليب فى ديوانه كما يذكر قديس قبيلته مار سرجيس ، ويُقْسم بالمسيح والرهبان . وقد ظل يهاجى جريراً إلى أن توفِّى سنة اثنتين وتسعين للهجرة .

---

(١) الصهباء : الخمر . كلفت : تغير لونها .

(٢) عذراء : لم تفضّ . العبادى : . نسبة إلى قوم فى الحيرة كانوا يتجرون فى الخمر ، وهم نصارى ، سموا العباد .

(٣) الشاصيات : الممتلئة .

(٤) النقا : الكثيب من الرمل .

(٥) نهاديه : نسوقه . الحشاشة : بقية النفس .

(٦) أغانى (دار الكتب) ٨/٢٩٠ .

٥

الفرزدق [١]

شاعر تميمى ، وكانت تميم تنزل فى الجاهلية بشرق الجزيرة، وتمتد عشائرها وبطونها من اليمامة إلى شواطئ الفرات ، وتتغلغل فى نجد . مما جعلها تصطدم بالقبائل اليمنية والمضرية والربعية فى أيام كثيرة ، كما اصطدمت بالحيرة وملوكها المناذرة . وتُتعدّ أكبر القبائل المضرية،وهى فى حقيقتها مجموعة من القبائل ، تنتسب إلى أب واحد . وعلى نحو ما كانت تصطدم بجيرانها كانت تصطدم قبائلها بعضها ببعض،ومن أشهر هذه القبائل دارم ويَرْبوع ومازن ومِنْقر وبنو الهُجَيْم وبنو أنف الناقة . ويُفيض كتاب شرح نقائض جرير والفرزدق فى الحديث عن أيامها وحروبها القديمة،ومن أهمها « أُوارة » بين دارم وعمرو بن المنذر ملك الحيرة و«الرَّحْرحان» بين دارم وعامر و « ذو نَجَب» بين يربوع وعامر و « النِّباج » بين مِنْقر وبكر و «إراب» بين يربوع وتغلب و«جَبَلة» بين تميم ومعها ذبيان ، وعامر ومعها عبس و«طَخْفة» بين دارم ويربوع . وكانت وثنية إلا نفراً قليلا تنصروا ، وهم يسمَّون فى الحيرة بالعباديين . ومن أشهر شعرائها الجاهليين أوس بن حَجَر وسلامة بن جَنْدل وعلقمة الفحل وعدى بن زيد العبادى ، ومن شعرائها فى صدر الإسلام عَبْدة بن الطبيب ومتمم

---

(١) انظر فى ترجمة الفرزدق الأغانى (طبع ساسى) ١٩/٢ وما بعدها وأخباره مع ابن الزبير وزوجه النوار فى أغانى (دار الكتب) ٣٢٤/٩ وما بعدها وراجع فيه الشعر والشعراء ٤٤٢/١ وابن سلام ٢٤٩ وما بعدها والموشح ص ٩٩ وما بعدها ومعجم الأدباء لياقوت ٢٩٧/١٩ وخزانة الأدب ١٠٥/١ ومرآة الجنان لليافعى ٢٣٨/١ وأمالى المرتضى ٥٨١ وما بعدها . وله أخبار متفرقة فى الأغانى انظر الفهرس ، وراجع الإصابة ٢١٢٠/٥ والطبرى ١٨٠/٤ وما بعدها و ص ٢١٦ ، ٢٣١ ، ٢٨٣ ، ٣٠٦ والمبرد ص ٦٩ وما بعدها ، ١٢٨ ، ٢٠٨ ، ٢٨٨ ، ٢٩٢ والأمالى ٥٣/٣ وكذلك الاستيعاب لابن عبد البر ص ٤٦٩ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٤٦٥ والاشتقاق ص ٢٣٩ وما بعدها. وقد طبع ديوانه طبعات مختلفة ، طبع بوشيه جزءاً كبيراً منه وأكله هل . وطبع فى مصر وبيروت طبعات مختلفة ، أهمها طبعة الصاوى . ونشر بيفن كما قدمنا نقائضه مع جرير بشرح أبى عبيدة ، والديوان والنقائض جميعا فى حاجة إلى نشرة علمية محققة .

ابن نويرة . وقد دخلت فى الإسلام بعد فتح مكة ، وكانت من أسرع القبائل إلى الردة ، إذ ظهرت فيها متنبئة تسمى سجاح . وتبعها كثيرون ، فجمع لها أبو بكر الجموع بقيادة خالد بن الوليد . وسرعان ما عادت تميم إلى الإسلام ، مستضيئة بنوره ، وشاركت مشاركة ضخمة فى فتوح إيران وخراسان . ونجدها بارزة فى معارك صِفِّين ، كما نجد فئات كثيرة منها تنضم إلى الخوارج فى زمن على بن أبى طالب ، ثم فيما تلاه من أزمنة ، وخاصة فى صفوف الأزارقة . وقد مرَّ بنا أنها تحالفت فى البصرة مع قيس ضد الأزد وربيعة ، وظهرت نتيجة هذا الحلف عقب وفاة يزيد بن معاوية ، فقد اصطدمت بالأزد ، وظلتا متنافرتين طول العصر لا فى البصرة فحسب ، بل أيضاً فى خراسان .

وكانت دارم تتشعَّب شعباً أهمها بنو فُقَيْم وبنو سَهْل وبنو مُجاشع ، وفى بيت نبيل من بيوت العشيرة الأخيرة وُلد الفرزدق وهو لقبٌ لقِّب به لجهامة وجهه وغلظه ، فإن الفرزدقة الخُبْزَة الغليظة التى يتخذ منها النساء الفتوت . واسمه هَمَّام ابن غالب بن صَعْصعه بن ناجية بن عِقال ، وجميعهم فى ذروة الشرف والسيادة من دارم . وقد اشتهر جده صعصعة بأنه كان ممن فَدَى الموءودات فى الجاهلية ونَهى عن قتلهن ، ويقال إنه فَدَى أربعمائة منهن ، وقيل دون ذلك ، ونوَّه الفرزدق فى شعره بهذه المكرمة لجده طويلا ، من مثل قوله :

أَبى أَحدُ الغَيْثين صعصعةُ الذى ... متى تُخْلف الجوزاءُ والنَّجْمُ يَمْطُرِ

أَجار بناتِ الوائدين ومن يُجِرْ ... على القَبْر يُعْلَمْ أنه غيرُ مُخْفِرِ

وكان لصعصعة قيون منهم جُبَيْر وَوَقْبان ودَيْسم ، ومن ثَمَّ جعل جرير مجاشعا قيونا كذباً وبهتاناً . وصعصعة أحد من أتوا النبىَّ صلى الله عليه وسلم فى وفد تميم . وعلى نحو ما كان صعصعة عظيم القدر فى الجاهلية كان ابنه غالب فى الإسلام وأمه ليلى أخت الأقرع بن حابس ، وكان بحراً فياضاً ، ومما يروى من جوده السَّيَّال أن نفراً اختاروه بين طائفة من الأجواد يسألونهم ليعرفوا مدى جُودهم ، فما كاد يسمع مسألتهم حتى أعطاهم مائة ناقة دون أن يعرفهم . ويُرْوَى أن دارما ويربوعا أصابتهما سنة مجدبة ، فعقر لعشيرته ناقة ، وبادر سيد يربوع سُحَيم بن وَثيل فصنع صُنعه ، فنحر عشرا من الإبل ، فنحر سُحَيْم مثله عشرا .

فلما رآه ينافسه نحرَ إبله كلها فى مكان يسمى صَوْءر ، وقيل إنها كانت مائة ، وقيل بل كانت أربعمائة . وافتخر الفرزدق بالحادثين كثيراً فى شعره . ولم يكن يتلفع بالشرف من قبل أبيه وحده فقد كانت أمه من أسرة شريفة من قبيلة ضبة . وكانت له أخت تسمى جِعْثِن ، وتصادف أن أحد أشرار بنى مِنْقر رآها فضرب بيده على نحرها . فصرخت ومضى ،وقد عيرَّ جرير الفرزدق بذلك كثيرا حتى لنراه يرميها بالفحشاء افتراء ، إذ كانت سيدة فاضلة .

وليس بين أيدينا ما يدل على السنة التى وُلد فيها الفرزدق ، وأغلب الظن أنه وُلد حوالى سنة عشرين للهجرة ، ففى أخباره أنه قال « : كنت أهاجى شعراء قومى وأنا غلام فى خلافة عثمان » وخلافته امتدت من سنة ثلاث وعشرين إلى خمس وثلاثين للهجرة . وفى أخباره أيضاً أن أباه قدَّمه إلى على بن أبى طالب بعد موقعة الجمل سنة ٣٦ ، وقال له إن ابنى هذا شاعر ، فنصحه أن يعلِّمه القرآن .

وواضح مما قدمنا أن الفرزدق نشأ فى بيت كريم ، مآثره ومفاخره لاتُدْفَعُ ، وكان لذلك أثر عميق فى نفسيته إذ كان يعتدُّ بآبائه اعتدادا شديداً ، كما كان يعتد بعشيرته وقبيلته ، حتى إنه يُعَدُّ أضخم صوت لتميم فى هذا العصر ، وجعله ذلك يتمسك بمآثر أهله وكرمهم المسرف ، فإذا باع إبله نثر أموالها على الناس ، لينتسب فيهم ، وظل يُجير على قبر أبيه غالب ، على نحو ما كان أجداده يُجيرون . ولما توفِّى صديقه بشر بن مروان نحر ناقته على قبره كما كان يصنع الجاهليون . وأخلاقُ الفرزدق من هذه الناحية تتصل بالأخلاق الجاهلية ، وبكل ما ينطوى فى هذه الأخلاق من إثم ، فقد عُرف بفسقه وشربه للخمر التى حرَّمها الإسلام ،وأيضاً بكل ما ينطوى فى هذه الأخلاق من عصبية وغلظة . وهو من هذه الناحية يمثِّل البدوى التميمى شديد الشكيمة الذى لا يدين بالطاعة للسلطان ؛ ولعله من أجل ذلك ظل طويلا بعيداً عن قصر بنى أمية فى دمشق ، وكأنه كان يحسُّ أنه من أسرة لا تقل عن أسرة بنى أمية شرفاً وسيادة . ونرى هذا الإحساس واضحاً حين ألمّ عم له يسمى الحُتات بمعاوية مع وفد من تميم ، فقد تصادف أن توفِّى قبل مغادرة الوفد دمشق ، فأمر معاوية بأخذ ما كان أعطاه من مال ، ولم يكد يسمع بذلك الفرزدق حتى نظم قصيدة فى معاوية يقول فيها :

فما بالُ ميراث الحُتات أخذتَه ... وميراثُ حَرْبٍ جامدٌ لك ذائبُهْ[١]

فلو كان هذا الأمرُ فى جـاهليَّةٍ ... علمتَ منِ المرءُ القليلُ حلائبه[٢]

ويقول بعض الرواة إن أول شعر قاله الفرزدق نظمه فى ذئبٍ ذهب بكبش من غنم لأهله ، وهو يستهلُّه بقوله :

تلوم على أن صَبَّح الذئب ضَأْنَها ... فألْوَى بكبْشٍ وهو فى الرَّعْيِ راتعُ

وهى أبيات جيدة الصياغة . وفى أخباره كما مر بنا ما يدل على أنه نشأ حَديد اللسان محبا للخصومات ، يهجو من حوله من قومه وغير قومه ، وكان ممن هجاهم وأسرف فى هجائهم بنو فُقَيْم وذلك أنهم خرجوا يطلبون دماً لهم فى قوم ، فصالحوا منه على دية ، فقال حين رجعوا :

لقد آبَتْ وفودُ بنى فُقَيْمٍ ... بِآلمِ ما تؤوبُ به الوفودُ

ومضى يهجوهم هجاء كثيراً ، فاستغاثوا منه بالأشهب بن رُمَيْلة النَّهْشلى ، واستعر الهجاء والتفاخر بينهما ، حينئذ رفعوا أمره إلى زياد بن أبيه . وكان ذلك فى سنة خمسين للهجرة ، فطلبه ، وخافه الفرزدق ، فهرب منه متجهاً نحو البادية ، وأخذ يستجير ببعض شيوخ القبائل ، فأجاره قوم من بكر بن وائل ، وأعانوه على الفرار ، فولَّى وجهه نحو المدينة وعليها سعيد بن العاص من قِبَل معاوية ، وكان سيداً ممدَّحا ، فأمَّنه وأجاره ، ومدحه مدائح رائعة من مثل قوله :

ترى الغُرَّ الجَحاجحَ من قريشٍ ... إذا ما الأمرُ فى الحَدثانِ غالا[٣]

قياماً ينظرون إلى سعيدٍ ... كأنهمُ يرون بهِ هِـلالا

وسمعه الحطيئة وهو ينشد سعيداً هذه القصيدة . فقال : هذا والله الشعرُ لا ما نُعلَّل به منذ اليوم . وبلغه أن زياداً رقّ له وقال : لو أتانى لآمنته وأعطيته ، فقال فى كلمة :

دعـانى زيادٌ للعطاءِ ولم أكنْ ... لآتيَهُ ، ما ساق ذو حَسَبٍ وَفْرا[٤]

---

(١) حرب : جد معاوية . وهو السيد الكريم . الحدثان : حوادث الدهر ونوائبه . وغال : أصاب بشر .

(٢) الحلائب : الجماعات وأبناء العم فى القبيلة .

(٣) الغر : جمع أغر وأصله أبيض الغرة ويريد به الشريف . الجحاجح : جمع جحجاح

(٤) الوفر : المال الكثير . وأراد التأبيد أى لا آتيه أبداً .

ومضى فى المدينة ينفق أيامه ولياليه فى اللهو والاختلاف إلى دور القيان، وذكر ذلك فى شعره بمثل قوله :

إذا شئتُ غنَّانى من العاج قاصفٌ على مِعْصَمٍ رَيَّان لم يَتَخَدَّدِ[1]

وقوله :

هما دلَّتانى من ثمانينَ قــامةً كما انقضَّ بازٍ أقْتَمُ الرِّيشِ كاسِرُه

وقد أتاه جرير كثيراً من هذه الثُّغْرة فى خلقه وسلوكه . وكان معاوية يجعل المدينة تارة لسعيد بن العاص وتارة لمروان بن الحكم، فوَلِىَ مروان ، وكانت فيه شدة على أصحاب اللهو ، فترك الفرزدق المدينة إلى مكة ، وفى طريقه إليها أتاه نعى زياد فثابت إليه نفسه ، ومضى إلى البصرة ، وهناك وجد ابن عمه مسكينا الدارمىَّ يتفجَّع على زياد بمثل قوله :

رأيت زيادةَ الإسلام ولَّتْ جِهــارا حين ودَّعها زيادُ

فحنق عليه حنقاً شديداً ، وهجاه بقصيدة يقول فيها :

أمسكينُ ! أبكى اللهُ عينك إنما جَرَى فى ضلالٍ دمعُها فتحدَّرا

وهجاه مسكين ، وأمسك الفرزدق عنه ، حتى لا يهدم شطر حسبه . ونراه يمدح عبيد الله بن زياد ويوسع له فى مجالسه . ولا يفارقه شره ، فيهجو بنى مِنْقر ، ويغضب لهم مُرَّة بن مَحْكان [2] شاعر بنى رُبيع التميميين وسيدهم ، فيهجوه وعشيرته بكلمة يقول فى تضاعيفها :

تُرَجِّى رُبَيْعٌ أن يجىء صِغــارُها بخيْرٍ وقد أعْيَا رُبَيْعاً كبارُهــا

ويشتعل بينهما الهجاء . وندخل فى فترة فتنة ابن الزبير ، وتتبعه العراق كما تبعته الحجاز ، ويحدث أن يقتل مصعبٌ ابنَ محكان. ونرى الفرزدق فى هذه الأثناء

---

(١) أراد بالعاج أساور العاج . قاصف : من القصف وهو الجلبة ، يشير إلى وسوسة الأساور . ريان : ممتلىء . يتخدد : يتجعد .

(٢) انظر فى ترجمة مرة ابن سلام ص ٢٧٥ والشعر والشعراء ٦٦٧/٢ وأغانى (ساسى) ٩/٢٠ ومعجم الشعراء ص ٢٩٥ .

يدخل — كما مر بنا — مع جرير فى معركة الهجاء التى استمر شررها يتطاير حتى توفى ، والتى أورثتنا نقائضهما آنفة الذكر . وينشب شجار بين الفرزدق وبين زوجه النَّوَار وهى ابنة أعْيَن بن ضُبيعة المجاشعى ، وكان قد تزوجها راغمة ، إذ خطبها خاطب من قريش فجعلته وليَّها ، فانتهز الفرصة . وأشهد أنها جعلت أمرها إليه وأنه يتزوجها على مائة ناقة حمراء سوداء الحَدق . فغضبت من ذلك وما زالت تغاضبه ، وادّعت عليه طلاقاً ، ونازعته ، وخرجت إلى عبد الله بن الزبير ونزلت على زوجته خَوْلة بنت منظور بن زَبَّان الفزارى ، وتشفَّعت إليها . وتبعها الفرزدق فنزل على حمزة بن عبد الله بن الزبير ، فكان حمزة إذا أصلح شيئاً من أمر الفرزدق قلبته عليه خولة . فقال الفرزدق :

أما البنون فلم تُقْبَلْ شفاعتهم ... وشُفِّعَتْ بنتُ منظور بن زَبَّانا
ليس الشفيعُ الذى يأْتيك مُؤْتزرا ... مثلَ الشفيع الذى يأْتيك عُرْيانا

وأمرهما ابن الزبير أن يحتكما إلى عامله فى العراق فمضت معه النوار مغاضبة له ، ويقال : بل اصطلحا فى مكة ، غير أنها ظلت تشارُّه وتشاجره : إذ كانت تكره كثيراً من أمره ، وكانت صالحة حسنة الدين . وخطب حَدْراء بنت زيق بن بسطام الشيبانية وكانت نصرانية وأخذ يمدحها ويعرِّض بالنوار ، فاستغاثت منه بجرير ، فأغاثها وأخذ يهجو حدراء وقومها معها ، وتصادف أن ماتت حدراء قبل أن يبنى بها ، ويظهر أنه كان مزواجا ، فقد تزوج زنجية أعقب منها ابنته مكية ، وتزوج رهيمة النمرية وطيبة المجاشعية ، ونشزتا منه فطلقهما ، ومازالت النوار تغاضبه حتى طلقها وندم ندماً شديداً ، يقول فى كلمة له يصور ندمه :

ندمتُ ندامةَ الكُسَعِىِّ لما ... غَدَتْ منى مطَلَّقةً نَوارُ[1]
وكانتْ جَنَّةً فخرجتُ منها ... كآدم حين أَخرجه الضِّرار[2]

ويذكر ابن قتيبة أنه وُلد له لبَطَة وسَبَطة وخَبَطة ورَكَضة من النوار ووُلد له أيضاً زَمْعة . وكان شاعراً وإن لم يبلغ مبلغ أبيه فى الشعر . وفى تسميته

---

(١) الكسعى : شخص يضرب به المثل فى الندم . (٢) الضرار : العصيان والمخالفة .

لأبنائه هذه الأسماء مايدل من بعض الوجوه على غلظ نفسه ولاشك فى أن فشله المبكّر فى حياته الزوجية يدل على جفوته . ونراه مقرباً من بشر بن مروان الذى ولى العراق لأخيه عبد الملك ، حتى ليستثير الشعراء لمناقضة جرير وهجائه ، وفيه يقول :

يا بِشْرُ إنك سيف الله صِيلَ به ... على العدو وغيثٌ يُنْبِت الشَّجَرا

وولِىَ العراقَ الحجاجُ ، وكانت فيه قسوة ، فخشى بطشه ومضى يمدحه مدائح رائعة من مثل قوله :

إن ابن يوسفَ محمودٌ خلائقهُ ... سيانِ معروفهُ فى الناس والمطرُ

هو الشهابُ الذى يُرْمَى العدوُّ بهِ ... والمشرفىُّ الذى تَعْصَى به مُضَر[1]

ونوّه طويلا بسيرته وقضائه على الرشوة والثوار وإقامته لموازين العدل : حتى إذا توفّى رثاه رثاء حارّاً ، يقول فيه :

ومات الذى يَرْعَى على الناس دينَهم ... ويضربُ بالهِنْدِىِّ رأْسَ المخالِف[2]

وسرعان ما نجده يثوب إلى نفسه وعصبيته التميمية ضد قيس وزعيمها الحجاج وخاصة حين رأى سليمان بن عبد الملك يلى الخلافة ، وكان أخوه الوليد حاول أن يخلعه من ولاية العهد ، ولجّ معه الحجاج وولاته فى المشرق ، وتصادف أن توفّى الحجاج قبل خلافة سليمان ، فلما ولِىَ لم يكن له هم إلا عُمّال الحجاج وثار عليه قتيبة بن مسلم الباهلى القيسى بخراسان ، فقتلته تميم وردّت الأمر إلى نصابه . حينئذ نرى الفرزدق يهجو الحجاج ويقذع فى هجائه ، مستشعراً عصبية عنيفة لتميم . وكان يستشعر هذه العصبية دائماً إلا أن يُضْطرّ اضطراراً للنزول عنها . وبتأثيرها نجده يشذ على ذوق مواطنيه ، فيهجو المهلب الأزدى السيد الجواد والفارس الشجاع الذى لهج الشعراء باسمه ، ويحاول ابنه يزيد حين صار إليه الأمر بعد أبيه أن يستقدمه إليه فى جرجان ، ليُضْفِى عليه من نواله ، فيأبى قائلا :

---

(١) تعصى عنا : تضرب ؛ من العصا . (٢) الهندى : السيف .

دعانى إلى جُرْجان والرِّىُّ دونه ... لآتيهُ ، إنى إذنْ لزَءُورُ[1]
سآبى وتأبى لى تميمٌ وربما ... أبيتُ فلم يقدر علىَّ أمير

حتى إذا ولى يزيد العراق لعصر سليمان بن عبد الملك مضى يمدحه مسرفاً فى مديحه على شاكلة قوله :

إنى رأيتُ يزيدَ عند شبابِه ... لَبِسَ التُّقَى ومهابةَ الجبَّارِ
وإذا الرجالُ رأوا يزيدَ رأيتهم ... خُضُعَ الرِّقاب نواكسَ الأبصارِ

ودار الزمن فثار ابن المهلب على يزيد بن عبد الملك ، وقضى على ثورته مسلمة تُعينه تميم وفارسها المغوار هلال بن أحوز المازنى الذى تعقب آل المهلب فى قنداييل وقضى عليهم قضاء مبرماً ، حينئذ نجد الفرزدق يفتخر بهلال وصنيع تميم، هاجياً يزيد بن المهلب وأسرته هجاء مرا[2].

وقد قلنا آنفاً إنه ظل طويلا لا يفد على قصر بنى أمية فى دمشق ، وأول من وفد عليه من خلفائهم سليمان بن عبد الملك ، وله يقول :

تركتُ بنى حَرْبٍ وكانوا أئمةً ... ومروانَ لا آتيه والمتخيَّرا
أباك وقد كان الوليدُ أرادنى ... ليفعل خيرا أو ليُؤْمن أوْجَرا[3]
فما كنتُ عن نفسى لأرحل طائعا ... إلى الشام حتى كنت أنت المُؤَمَّرا

ومنذ هذا التاريخ يصبح من شعراء بنى أمية الذين يدعون لهم ويدافعون عن خلافتهم ، مضفين عليهم هالة قدسية من التقوى والبرّ ، تحفُّها المبالغة المسرفة من مثل قوله فى سليمان :

أنت الذى نعت الكتابُ لنا ... فى ناطق التوراة والزُّبُرِ
كم كان من قَسٍّ يخبِّرنا ... بخلافة المهدىِّ أو حَبْر
جعل الإلهُ لنا خلافته ... بُرْءَ القروح وعصمةَ الجَبْر

(١) زءور : كثير الزيارة.
(٢) الديوان ص ٥٧٥ .
(٣) الأوجر : الخائف .

وقوله فى يزيد بن عبد الملك ، ولهوُه ومجونه معروف :

ولو كان بعد المصطفى من عبادهِ نبيٌّ لهم منهم لأمر العزائمِ
لكنت الذى يختاره الله بعده لحَمْل الأمانات الثِّقال العظائم
ورثتم خليلَ الله كل خِزانةٍ وكلَّ كتابٍ بالنبـــوة قائم

ولعل فى هذه الأبيات ما ينقض قول من زعموا أنه كان شيعيًّا مائلا إلى بنى هاشم وإنهم ليسترسلون فى ذلك فينسبون إليه قصيدة فى على بن الحسين وهى القصيدة ذات البيت المشهور :

هذا الذى تعرف البَطْحاءُ وَطْأَتَهُ والبيتُ يعـــرفه والحِلُّ والحَرمُ

وقد أنكر أبو الفرج الأصبهانى نسبة القصيدة إليه[1]، والذى لا شك فيه أنها تخالف نَسجْه كما تخالف نفسيته إذ كان لا يتعصب لشىء سوى قبيلته وآباته ، وقد مدح بنى أمية بأخرة ، أما ولاة العراق فكان إذا خاف بطشهم مدحهم ، فإذا اطمأن وسكن روعه هجاهم ، وخاصة إذا أظهروا عصبية ضد تميم ، وممن أسرع إلى هجائه منهم عمر بن هبيرة الفزارى والى يزيد بن عبد الملك ، وفيه يقول :

أميرَ المؤْمنين وأنت عَفٌّ كريمٌ لستَ بالطَّبِع الحَرِيصِ[2]
أوليتَ العِراقَ ورافِديْهِ فَزاريًّا أحـــذَّ يدِ القميصِ[3]

ووَلِىَ بعدَه خالد القسرى لهشام بن عبد الملك ، وكان شديد العصبية لليمنية ، وكانت أمه مسيحية ، فبنى لها كنيسة بالكوفة ، وسخَّر الناس فى شق نهر المبارك ، وانتهز الفرصة الفرزدق ، فأخذ يهجوه بالعملين جميعاً ، يقول :

بَنَى بيعةً فيها الصليبُ لأُمِّه وهـــدَّم من كُفْرٍ منارَ المساجِد

ويقول

أهلكتَ مالَ الله فى غير حقِّه على نَهْرك المشئوم غير المبارَكِ

---

(١) أغانى (ساسى) ١٤/٧٥ .
(٢) الطبع : اللئيم الدنىء .
(٣) أحذ : سريع ، يصفه بالسرقة وأنه غير أمين على أموال الأمة .

وأمر خالد صاحب شرطته مالك بن المنذر بن الجارود أن يحبسه ، فألقى به فى السجن ، فانقلب يستعطف مالكاً وخالداً وهشام بن عبد الملك وبعض مقربيه من الكلبيين بمدائح كثيرة ، واستعان بخصومه من القيسية وأعانه شاعرهم جرير . وتصادف أن حجّ خالد وأناب عنه أخاه أسدا ، فردّ إليه حريته ، ومن ثم نراه يمدحه مدائح كثيرة .

وكل شيء يؤكد أنه أناب إلى ربه فى سنيه الأخيرة فقد أخذ يندم على ما اقترف من آثام ، ومن خير ما يصور ذلك قصيدته فى إبليس ، وفيها يقول :

أطعتك يا إبليسُ سبعين حِجَّةً فلما انتهى شَيْبى وتمَّ تمامى
فَرَرْتُ إلى ربى وأيقنت أننى مُــلاقٍ لأيام المَنون حِمامى

وأخيراً وافاه القدر سنة ١١٤ للهجرة .

وواضح مما قدمنا أن الفرزدق أمضى حياته فى المديح والهجاء ، وهو فى مديحه يتخلف عن الأخطل وجرير جميعاً لمــا قدمناه من خشونة نفسه وصلابتها ، وهو كذلك يتخلف عن جرير فى الهجاء ، لأن نفس جرير كانت محملة بمرارة مسرفة . إذ لم يكن له ما للفرزدق من شرف المحتد ، فكان ينصبُّ عليه وعلى غيره من مهجويه كالصقر الجارح . وهذه النفس الخشنة الصلبة للفرزدق جعلته لا يبرع فى الغزل ، يقول الجاحظ : « وهذا الفرزدق وكان مستهتراً بالنساء وكان زيرَ غوانٍ وهو فى ذلك ليس له بيت واحد فى النسيب مذكور ، ومع حسده لجرير . وجرير عفيف لم يعشق امرأة قط وهو مع ذلك أغزل الناس شعرا »[1] . وكان جرير يتقدمه كذلك فى الرثاء ، إذ كانت نفسه لينة رقيقة . والموضوع الذى يتفوق فيه الفرزدق على الأخطل وجرير ، بل على جميع شعراء عصره ، هو الفخر ، إذ كان يعتدُّ بآبائه وقبيلته اعتداداً لاحد له ، ومن ثم بلغ فى الافتخار بهما الغاية القصوى على شاكلة قوله :

وكُنَّا إذا الجبَّارُ صعَّرَ خدَّه ضربناه حتى تستقيم الأخادعُ[2]

---

(١) البيان والتبيين ١/٢٠٨ .

(٢) صعر خده : أماله كبراً وعظرسة . الأخادع : جمع أخدع وهو العرق البارز فى صفحة العنق . واستقامة الأخادع كناية عن الخضوع والذل .

وقوله :

ترى الناس ماسرْنا يسيرون خَلْفَنا ... وإن نحن أَوْمَأْنا إلى الناس وقَّفوا[١]

وقوله :

إن الذى سَمك السماء بنى لنـــا ... بَيْتـــاً دعائمُهُ أَعزُّ وأَطولُ[٢]
حُلَلُ الملوك لِباسُنا فى أهلنا ... والسَّابغاتِ إلى الوَغَى نتَسَرْبَلُ[٣]
أَحلامُنا تَزِنُ الجبالَ رزانةً ... وتخالنا جِنًّا إذا ما نَجْهلُ[٤]
فادْفَعْ بكفِّك ـ إن أردت بناءنا ـ ... ثهلانَ ذَا الهضباتِ هل يتَحلْحَلُ[٥]

والحق أن الفرزدق كان نبعاً كبيراً من ينابيع الشعر ، وهو نبع كان يتدفق من نفس صَلْبة ، ولعل ذلك ما جعل الالتواء والشذوذ يكثر فى أساليبه ، من مثل قوله المشهور فى مديح إبراهيم بن هشام المخزومى خال هشام بن عبد الملك :

وما مثلُه فى الناس إلا مُمَلَّكاً ... أَبو أُمِّه حىٌّ أَبوه يُقاربُهْ

فإن البيت لا يُفْهَمُ إلا إذا رتبنا كلماته ترتيباً طبيعيًّا على هذا النحو : « وما مثله (الممدوح) فى الناس حىٌّ يقاربه إلا مملكا أو ملكاً (هو هشام بن عبد الملك) أبو أمه أبوه . وكان يضيف إلى ذلك شواذ نحوية كقوله :

وعَضِّ زَمانٍ يابنَ مَرْوانَ لم يَدَعْ ... من المال إلا مُسْحَتاً أَو مُجَرَّف[٦]

وكان القياس أن يقول مجرفاً بالنصب ، ولكنه رفع على الاستئناف تمشيا مع رَوِىِّ قصيدته . وكان ابن أبى إسحق الحَضْرمى يراجعه فى ذلك ومثله كثيراً ، فكان يَسْخر منه . وقد عَدَّه اللغويون أحد مصادر اللغة ، حتى قالوا : « لولا شعره لذهب ثلث لغة العرب » ومن ثَمَّ دارت أشعاره فى كتب اللغويين والنحاة كما دارت فى كتب التاريخ والأخبار لحديثه عن أيام العرب ومناقبهم ومثالبهم

---

(١) وقفوا : وقفت ركائبهم لا يتقدمون .
(٢) سمك : رفع .
(٣) السابغات : الدروع الكاملة . نتسربل : نلبس ..
(٤) نجهل هنا : نغضب حمية .
(٥) ثهلان : جبل . يتحلحل : يتحرك .
(٦) المسحت والمجرف : المهلك المستأصل .

حتى قالوا : « لولا شعره لذهب نصف أخبار الناس » . وواضح مما قدمنا أن شعره لا يشتبك بأحداث البصرة وحدها . بل يشتبك أيضاً بأحداث الخوارج وأحداث خراسان . وله مدائح وأهاج مختلفة فى ولاتها وولاة فارس ، أمثال عبيدالله بن أبى بَكْرة والجَرّاح الحكمى وعمر بن عبيدالله بن مَعْمر والجُنَيْد ابن عبد الرحمن المُرِّىّ . وقد نوّه طويلا بأسد بن عبد الله القسرى وهلال بن أحْوز المازنى . وأشعاره رغم فسقه مطبوعة بروح الإسلام ، فهو يكثر فيها من ذكر الصلاة والتقوى والبعث والحساب ، كما يكثر من الإشارة إلى قصص الأنبياء . وهو يضمن ذلك مدائحه وأهاجيه جميعاً . وتمتاز أساليبه بجزالة اللفظ وقوة الرصف ، مما جعل تراكيبه ضخمة ، وهو ضِخَمٌ ناشىء من طوايا نفسه الضخمة الصلبة التى قلما تعرف الرقة واللين

٦

جرير [1]

شاعر تميمى من عشيرة كُلَيْب اليربوعية ، ولم يكن لآبائه ولا لعشيرته ما لآباء الفرزدق وعشيرته مُجاشع من المآثر والأمجاد ، أما العشيرة فعُرفت بأنها كانت ترعى الغنم والحمير . وقد دعا ذلك جريراً إلى أن يرتفع بفخره إلى يربوع وكان لها أيام كثيرة فى الجاهلية ، فأشاد بأيامها وفرسانها طويلا .

وكان أبوه عطية متخلفا فى المال مبخّلا ، أما جَدُّه الخَطَفى فكان كثير المال من الغنم والحمير ، وقد أتاه من قِبَله الشعر ، ومما يُرْوَى من شعره قوله :

عجبتُ لإزراء العَيِىِّ بنفسهِ ... وصَمْتِ الذى قد كان بالقول أعْلَما

وفى الصمت سترٌ للعَيِىِّ وإنما ... صحيفةُ لُبِّ المرءِ أن يتكلما

(١) انظر فى ترجمة جرير الأغانى (طبع دار الكتب) ٣/٨ وما بعدها والشعر والشعراء ١/٣٥٤ وابن سلام ص ٣١٥ والموشح للمرزبانى ص ١١٨ وخزانة الأدب ١/٣٦ والعينى ١/٩١ وراجع فهارس الكامل للمبرد والبيان والتبيين — وانظر ذيل الأمالى ص ٤٣ والطبرى ٥/٢٦٧ ، ٢٧٣ وراجع فهرس الأغانى فى مواضع متفرقة والاشتقاق ص ٢٣١ وما بعدها . وقد نشر ديوانه فى القاهرة سنة ١٣١٣ للهجرة ونشره الصاوى بتعليقات مختصرة عن مخطوطة تتصل روايتها بابن حبيب . ونشر بيفن نقائضه مع الفرزدق بشرح أبى عبيدة ، ونشر صاوى نقائضه مع الأخطل برواية أبى تمام .

وكانت أمه تسمى أم قيس ، وهى من نفس عشيرته ، وقد ولدتْ جريراً فى بادية اليمامة حوالى سنة ثلاثين للهجرة ، وكان له أخوان هما عمرو وأبو الورد ، كانا ينظمان الشعر .

فجرير إن لم يكن نشأ فى بيت مجد فقد نشأ فى بيت شعر ، وظل الشعر يُتوارث فى أبنائه ، وأشعرهم بلال . وحفيده عمارة من الشعراء المشهورين فى العصر العباسى ، وعنه أخذ الرواة شعر جَدِّه وأكثر أخباره ، ويقول ابن قتيبة كان لجرير عشرة من الولد فيهم ثمانية ذكور .

ويظهر أن موهبة جرير الشعرية تفتحت مبكرة ، وقد وَجَد فى جَدِّه الخطَفَى خير من يلقِّنه الشعر ، ويقال إن من أوائل ما نظمه مما رواه له الرواة أبياتاً عاتبه بها ، وذلك أنه كان ذا مال كثير ، وكان يَنْحلُ أبناءه وأحفاده من ماله ، فاستنحله جرير ، فأعطاه بعض ماله ، ثم رجع فيه ، وقيل بل أعطاه قليلا فاسترده فلم يزده ، فتسخَّطه ، ونظم فيه طائفة من الأبيات يعاتبه بها ، وقد وصلها بعد ذلك بسنوات بأبيات نظمها فى الفرزدق وغَسَّان السليطى ، وفيها يقول معاتباً جدَّه :

وإنى لمغرورٌ أُعلَّلُ بالمُنَى ... ليالىَ أرجو أنَّ مالك مَالِيا
وإنى لعَفُّ الفقر مُشْتَرَكُ الغِنى ... سريعٌ - إذا لم أَرض دارى - انتقاليا

ويقال إنه وفد بعد ذلك إلى يزيد بن معاوية وهو خليفة ، فأنشده هذه الأبيات ، فقال له : كذبت إنها لجرير ، فقال له : أنا جرير . ومن قوله فيها :

وليستْ لسيفى فى العظام بقيَّةٌ ... وللسَّيْفُ أَشْوَى وقعةً من لسانيا

وواضح أنه يجعل لسانه أقطع من السيف ، فالسيف إنما يقطع الشَّوَى أى الأطراف ، فيُبْقى على من طعنه ، أما لسانه فلا يُبْقى بقية فيمن يطعنه . وهو استهلال لحياته الشعرية ، يدل على أنه مقتحم بها فن الهجاء ، وقد ظل يجول ويصول فى هذا الفن منذ خلافة يزيد إلى وفاته سنة ١١٤ إذ توفى بعد الفرزدق بنحو ستة أشهر . ونراه يهاجى غَسَّاناً السَّليطى ، ويعينه البَعيث ، فيطعنه ويطعن نساء عشيرته مجاشع طعناتٍ نجلاء ، فيُضْطَرُّ الفرزدق أن يُنازله ،

ويحتدم بينهما الهجاء طوال حياتهما ، ويقال إنه ظل يهجوه وهو مقيم بالمَرُّوت من بادية اليمامة بضع سنوات . فأرسلتْ بنو يربوع إليه : إنك مقيم بالمروت ، ليس عندك أحد يَرْوِى عنك . والفرزدق بالعراق قد ملأها عليك ، فانحدرَ إلى العراق ، فأقام بالبصرة . منشدا :

وإذا شهدتُ لثَغْرِ قومى مشهدًا ... آثَرْتُ ذاك على بَنِيَّ ومـالى

ويظهر أن إقامته بالبصرة بدأت مع دخول العراق فى طاعة ابن الزبير إذ نجد واليه الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة الملقب بالقُباع (٦٥ — ٦٦هـ) يأمر — حين رآه يتواقف مع الفرزدق بالمِرْبَدِ — صاحب شرْطته عَبَّاد بن الحُصَيْن بهدم داريهما ، فيهدم الدارين جميعاً ويطلبهما ، وفى ذلك يقول الفرزدق :

أَحارثُ دارى مَرَّتين هدمتهـا ... وكنتَ ابن أُختٍ لا تُخاف غَوائله

ويقول جرير :

وما فى كتاب الله هَدْمُ بيوتنا ... كتهديم ماخورٍ خبيثٍ مَداخِلُهْ

ولم يتهاج جرير مع الفرزدق وحده ، فقد تهاجى — كما أسلفنا — مع كثير من الشعراء ، ويقول صاحب الأغانى نقلا عن الأصمعى إنه كان ينهشه ثلاثة وأربعون شاعراً ، فينبذهم وراء ظهره ، ويرمى بهم واحداً واحداً ، ويقول فى موضع آخر إنه كان يهاجيه ثمانون شاعراً غلبهم جميعاً وكان يقول : إنهم يبدءونى ثم لا أعفو ، كما كان يقول : إننى لا أبتدىء ولكن أعتدى ، ويُرْوَى أن الراعى سمع راكباً يتغنى :

وعاوٍ عَوَى من غير شىءٍ رميتُه ... بقافيةٍ أَنْفاذُها تقطر الدِّما[1]
خَروجٍ بأَفواه الرُّواة كأَنَّها ... قَرَا هُنْدُوَانىٌّ إذا هُزَّ صمَّما[2]

---

(١) أنفاذ : جمع نفذ وهو الكلم الذى تحدثه الطعنة .

(٢) خروج : كثيرة الخروج ؛ يريد أنها كثيرة الإنشاد . قرا : متن وظهر . الهندوانى : السيف ؛ كانوا يجلبون سيوفهم الجيدة من الهند . صمم : قطع اللحم وبرى العظم .

فسأل عن صاحب البيتين ، فقيل له جرير ، فقال : والله لو اجتمع الجن والإنس على صاحب هذين البيتين ما أغنوا فيه شيئاً ، هل أُلام على أن يغلبنى مثل هذا الشاعر ؟ . وكان لا يزال بخصومه يطعنهم طعنات مسمومة فى نساء عشائرهم ، كقوله فى نساء عشيرة سُراقة البارقى ، وكان ممن رفعوا الفرزدق عليه :

يُعْطَى النساءُ مهورهن كرامةً ونساءُ بارقَ مالهن مهورُ

ولم يثبت له — كما أسلفنا — سوى الفرزدق والأخطل ، وثبت له عمر بن لجأ التَّيْمى إلى حين ويقال إنهما وفدا على المدينة ، وعليها عمر بن عبد العزيز ، وقيل ابن حزم ، وتصادف أن حجَّ الوليد بن عبد الملك ، فسمع بأنهما يتهاجيان ، فأمر بأن يُضْرَبا تأديباً ، فضُربا وأقيما على البُلُس[1] مقرونين . وعادا إلى العراق ، وجرير يرميه وعشيرته بمثل قوله :

قومٌ إذا حضَر الملوكَ وفودُهم نُتِفتْ شواربهم على الأبوابِ

واستغاثت تَيْمٌ بجرير وتوسلت إليه وتضرَّعت أن يكفَّ عنها ، فكفَّ بعد أن ثَلبَها وشاعرها ثلباً قبيحاً . وويل للعشيرة التى كانت تتعرض له ، روى الرواة أن الفرزدق أتى مجلس بنى الهُجَيْم فى مسجدهم ، فأنشدهم ، وبلغ ذلك جريرا ، فأتاهم من الغد لينشدهم كما أنشدهم الفرزدق ، فتعرض له شيخ منهم قائلا له : اتَّق الله ، فإن هذا المسجد بُنى لذكر الله والصلاة ، فانصرف عنهم مغضباً ، وهو يقول :

إن الهُجَيْمَ قبيلةٌ ملعـونةٌ حُصُّ اللِّحَى متشابهو الألوانِ[2]
لو يسمعون بأَكلةٍ أو شَرْبَة بعُمان أصبح جمعهم بعُمان
متـوركين بنيهمُ وبنـاتهم صُعْرَ الأُنوفِ لريح كلِّ دُخان[3]

(١) البلس : غرائر كبار تحشى تبناً ، كان يرفع عليها الجناة تشهيراً لهم وتأديباً .
(٢) الأحص : قليل الشعر فى ذقنه وعارضيه .
(٣) متوركين : يريد أنهم يحملون بناتهم وبنيهم ويذهبون يسألون بهم . صعر : جمع أصعر وهو الذى ينظر بوجهه لاوياً عنقه .

وظل جرير إلى أوائل عصر الحجاج (٧٥ — ٩٥هـ) لا يعرف من الشعر سوى الفخر والهجاء وما يقدِّم لهما من الغزل ووصف الصحراء، حتى إذا أظلَّه هذا العصر ، وصار حكم العراق لقيس وصاحبها الحجاج رأيناه يَقْدم على صهره وابن عمه الحكم بن أيوب الثقفي نائبه على البصرة ، فيمدحه برجز ، يقول فيه :

خليفة الحجَّـاج غير المتَّهَمْ فى مَعْقِدِ العِزِّ وبُؤْبُؤِ الكَرمْ[1]

واستنطقه فأعجبه ظَرْفه وشعره ، فكتب إلى الحجاج يخبره عنه، فكتب إليه أن ابعثْ به إليَّ، فقدم عليه ، فأكرمه . وسرعان ما عاش له جرير يمدحه مدائح رائعة من مثل قوله :

مَنْ سَدَّ مُطَّلَعَ النفـاق عليكمُ أم مَنْ يصولُ كصولة الحَجَّاج[2]
أم من يَغَارُ على النِّساءِ حفيظةً إذ لا يَثِقْنَ بغَيْرةِ الأزواج[3]
إنَّ ابنَ يوسف فاعلموا وتيقَّنُوا ماضى البصيرة واضحُ المِنْهاج
ماضٍ على الغَمرات يُمْضى همَّهُ والليلُ مختلفُ الطرائق داجِى[4]
منع الرُّشا وأراكمُ سُبُلَ الهُدَى والِّلصَّ نكَّله عن الإدْلاج[5]
وإذا رأيتَ منافقين تخيَّروا سبل الضَّجاج أقمتَ كل ضجاج[6]
داويتَهم وشفيتَهم من فتنةٍ غبراءَ ذاتِ دواخنٍ وأُجاج[7]
ولقد كسرتَ سِنانَ كلِّ منافقٍ ولقد منعتَ حقائبَ الحُجَّاج

وهو يمدحه بالصفات التى يجلُّها العرب من قديم، وبصفات أخرى تتصل بسياسته وولايته للعراق ، إذ يقول إنه سد ثغور النفاق ، مع شجاعة فائقة ومحافظة على الذمام . ويقول إنه نافذ البصيرة واضح السياسة ، يعرف كيف يخرج من الغمرات والشدائد ، ويصوِّر كيف أقام العدل فى الناس ومنع

---

(١) بؤبؤ : أصل .
(٢) المطلع : المنفذ من أعلى ، أو المصعد .
(٣) الحفيظة : الغضب .
(٤) الغمرات : الشدائد . داجى : مظلم .
(٥) الإدلاج : السير ليلا .
(٦) الضجاج : الباطل .
(٧) الأجاج هنا : من أجة النار . والدواخن : جمع داخن وهو الدخان

الرشوة وقضى على اللصوص وقُطّاع الطريق فى الليل المدلهم . ويقول إنه قوّم كل مائل وباطل ، وإنه داوى النفوس المريضة وحطم أسنة المنحرفين عن الدولة ولم يعد هناك أحد ممن يعيثون فى الأرض فسادا . ويقضى الحجاج على ثورة ابن الأشعث سنة ٨٢ فينوّه بانتصاره عليه قائلا :

دعا الحجّاجُ مثلَ دُعاءِ نوحٍ ... فأَسمع ذا المَعارج فاستجابا[1]
صبرتَ النفسَ يابن أَبى عَقيلٍ ... محافَظةً فكيف ترى الثَّوابا
ولو لم يَرْضَ ربُّك لم ينزِّلْ ... مع النَّصْر الملائكة الغِضابا
إذا سَعَرَ الخليفةُ نارَ حَرْبٍ ... رأَى الحجّاجَ أَثْقَبَها شهابا

وكان عبد الملك بن مروان فى دمشق يفسح فى مجالسه للأخطل شاعر تغلب النصرانى ، ويُنْقَلُ إليه شعر جرير فى الحجاج فيَغْبِطُه عليه لروعة شعره ومهارته فى المديح . ورأى الحجاج أن يُهديه إليه ، ووجد عند جرير رغبة صادقة فى أن يَمْثُلَ بمديحه بين يديه ، فصحبه معه فى وفادته التى وفدها على عبد الملك ، ويقال : بل بعث به إليه مع ابنه محمد ، فأذن له فى النشيد ، فبدأ فأنشد مدائحه فى الحجاج واحدة بعد واحدة ، ثم أنشده قصيدته التى يقول فى استهلالها :

تعزَّتْ أُمُّ حَزْرَةَ ثم قالتْ ... رأَيتُ المُوردين ذوى لقِاح[2]
تعلِّل ، وهْىَ ساغبةٌ ، بَنيها ... بأَنْفاسٍ من الشَّبِمِ القَراح[3]
سأَمتاح البحورَ فجَنِّبينى ... أَذاةَ اللوم وانتظرى امتياحى[4]

وخرج من ذلك إلى مديح عبد الملك ، فقال

وإنى قد رأَيتُ علىَّ حَقًّا ... زِيارتىَ الخليفَةَ وامتداحى
أَلستم خَيْرَ من ركب المطايا ... وأَنْدَى العالمين بطونَ راح[5]

---

(١) كان دعاء نوح : (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً) ذو المعارج : الله جل جلاله .

(٢) الموردون : أصحاب الإبل يوردونها الماء . ولقاح : جمع لقحة وهى الناقة فى أول نتاجها . أم حزرة : إحدى زوجاته .

(٣) تعلل أبناءها : تشغلهم . ساغبة : جائعة . النفس من الماء : الجرعة . الشبم : البارد . القراح : الصافى .

(٤) أمتاح : أستقى من المليح وهو العطاء .

(٥) أندى : أجود .

ولم يلبث أن أخذ يهاجم من ثار على عبد الملك مثل عمرو الأشدق بن سعيد بن العاص . ووقف عند عبد الله بن الزبير يصوِّر فتنته وكيف قضى عليه عبد الملك قضاء مبرماً . ومضى يمدح عبد الملك وأسرته وأنهم الجديرون من بين القرشيين بالخلافة ، منوها بانقياد الأمة له واجتماعها تحت لوائه ، يقول :

وقــومٍ قد سموتَ لهم فدانوا ... بِدَهْمٍ فى مُلَمْلَمــةٍ رَدَاحِ (١)
أبحتَ حِمَى تهــامةَ بعد نَجْدٍ ... وما شيءٌ حميتَ بمستباح (٢)
دعــوتَ المُلْحدين أبا خُبَيْبٍ ... جِماحًا ، هل شفيتَ من الجماح (٣)
فقــد وجدوا الخليفة هِبْرِزِيًّا ... ألفَّ العِيصِ ليس من النواحِى (٤)
فما شجراتُ عِيصِك فى قُرَيْشٍ ... بِعَشَّات الفروع ولا ضَواحى (٥)
رأى الناسُ البصيرةَ فاستقاموا ... وبَيَّنَتِ المِراضُ من الصِّحاح (٦)

وأُعجب عبد الملك بجرير إعجاباً شديداً فأعطاه مائة من الإبل وثمانية من الرعاة ومِحْلباً من فضة . وجرير فى هذه القصيدة ليس مادحاً فحسب ، بل هو محام عن عبد الملك وحكمه ، يدافع عن حقه فى الخلافة ، ويهاجم خصومه هجوماً عنيفاً ، وقد مضى بقية حياته يقرر فى مدائحه لعبد الملك ومن خلفوه حقهم فى الخلافة على الناس ، وهو من هذه الناحية يُعَدُّ شاعراً سياسياً بالمعنى التام ، شاعراً يحامى عن نظرية الأمويين فى الحكم ويناضل عنهم وما يزال يسدِّد سهامه إلى خصومهم ، وهو فى تضاعيف ذلك يحفُّهم بإطار رائع من التقوى والعمل الصالح ، مقرراً أن شيعتهم على الحق ، وأن من يخالفهم من الشِّيَع أهلُ باطل وضلال وأهواء وبِدَع ، يقول فى عبد الملك :

لولا الخليفةُ والقرآنُ نقرؤهُ ... ما قام للناسِ أحكامٌ ولا جُمَعُ

---

(١) دانوا : أطاعوا . الدهم : الجيش الكثير . ململمة : مجتمعة . رداح : ضخمة . يقصد من ثاروا عليه .

(٢) يريد عبد الله بن الزبير وغلبة عبد الملك على ما كان فى يديه من نجد والحجاز .

(٣) أبو خبيب : ابن الزبير . الجماح : العناد والخلاف .

(٤) هبرزيا : نافذاً فى الأمور ماضياً . ألف : ملتف . العيص : الشجر . يريد أنه فى صميم العز وليس فى نواحيه .

(٥) الشجرة عشة الفروع : دقيقة الأغصان . والضاحية : بادية العيدان ولا ورق عليها .

(٦) بينت : تبينت .

أنت الأمين أمينُ الله لا سَرِفٌ فيما وَليتَ ولا هَيَّابةٌ وَرَعُ[1]
أنت المباركُ يَهدى اللهُ شِيعتَه إذا تفرَّقتِ الأهواءُ والشِّيَعُ
فكلُّ أمر على يُمْن أمرتَ به فينا مُطاعٌ ومهما قلتَ مُسْتَمع
يا آلَ مروان إن الله فَضَّلكم فَضْلاً عظيما على مَنْ دينُه البِدَع

وواضح أنه يُزْرى على أصحاب الأهواء الذين يحادّون بنى أمية من الزبيريين والخوارج والشيعة ، ويسميهم أهل بدع وضلالة . ويتوفّى عبد الملك ، فيلزم ابنه الوليد ، ويظهر أنه كان يجفوه فى أول الأمر ، فقد مرّ بنا أنه أمر واليه على المدينة أن ينزل به وبابن لجأ عقوبة صارمة . غير أن هذا لم يَصْرف جريرا عنه ، فقد كان يلمّ به فى دمشق ، وكان يراه يقرّب عدىّ بن الرِّقاع ، فهجاه ، وحاول أن يستثيره ، ولكن عديا آثر العافية . واستطاع جرير أن ينفذ إلى الوليد وأن يقع منه بعد ذلك موقعاً حسناً بما دبّجه فيه من مدائح رائعة على شاكلة قوله :

إنَّ الوليدَ هو الإمامُ المصطفى بالنَّصْر هُــزَّ لواؤُه والمَغْنَمِ
ذو العرش قَدَّر أن تكون خليفةً مُلِّكْتَ فاعْلُ على المنابر واسْلَمِ

ونراه يلزم ابنه عبد العزيز . ويقدم له مدائح كثيرة . حتى إذا عزم الوليد على تنحية سليمان أخيه عن ولاية العهد وتوليتها عبد العزيز رأيناه يَحْطب فى حبله بمثل قوله :

إذا قيل أىُّ الناس خيرٌ خليفةً أشارتْ إلى عبد العزيز الأصابعْ

وسرعان ما تتطور الظروف ، ويتوفّى الوليد ويتولى سليمان ، فيفد عليه مادحاً ، محاولا أن يستنزل عطفه عليه ، بما يصوّر من تقواه ومن عدله وكيف أطلق مَنْ سَجنهم الحجاجُ وكيف ردّ مظالمه عن أهل العراق وأحسن

---

(١) الهيابة : الجبان وكذلك الوَرِع بفتح الراء .

إلى الناس ، وهو فى تضاعيف ذلك ينوِّه بأن الله اختاره للأمة ناعتاً له بأنه المهدى المنتظر ، يقول [١] :

سليمانُ المبـــارك قد علمتم ... هو المهدىُّ قد وضح السبيلُ
أجرتَ من المظالم كلَّ نَفْس ... وأدَّيتَ الذى عَهِـــدَ الرسولُ
صَفَتْ لك بيعةٌ بثبات عَهْد ... فَوزْنُ العَدْلِ أصبح لا يميل
وتدعـــوك الأَرامـــلُ واليتامى ... ومن أمسى وليس به حَوِيلُ[٢]
ويدعوك المكلَّفُ بعد جَهْدٍ ... وعانٍ قد أَضرَّ به الكبُول[٣]

ونراه يمدح ابنه أيوب ، ويرشحه لولاية العهد . غير أن سليمان رأى أن يصرفها إلى عمر بن عبد العزيز ، وكان يتأله فى دينه ويزهد فى الدنيا ، فأوصد أبوابه من دون الشعراء سوى جرير ، وكأنه قرّبه لما عرف فيه من عفته وحسن دينه ، ومعرفتُه به ترجع إلى أيام ولايته على المدينة ، وله فيه مدائح مختلفة ، يصوِّر فيها تقواه وأن الله اصطفاه للناس من مثل قوله :

أنت المبارك والمهدىُّ سيرتُه ... تَعْصِى الهوى وتقوم الليل بالسُّوَرِ
نال الخلافةَ إذ كانتْ له قَدَرًا ... كما أتى ربَّه موسى على قَـــدَرِ

ويشير إلى سياسة عمر فى طرْح العشور عن الرعية وكل ما كان يُجْبَىَ منها غير الخراج [٤] ، فيقول فى مدحة أخرى :

إن الذى بعث النبىَّ محمَّدًا ... جعل الخلافة فى الإمام العادلِ
ولقد نفعتَ بما منعتَ تحرُّجاً ... مَكْسَ العُشور على جسور الساحل[٥]

---

(١) جرير هنا يرسم فعلا سياسة سليمان فإنه لما ولى الخلافة أطلق الأسارى وأهل السجون وأولى الناس بإحسانه . انظر الطبرى ٥/٣٠٤ وراجع مجلة الرسالة التى نظمنا [illegible]

طاقته . والعانى هنا : السجين . والكبول : القيود . وهو يشير هنا فى وضوح إلى عسف الحجاج وظلمه ، غير أنه لم يتناوله بالهجاء على [illegible]

وسرعان ما توفّى عمر ، فندبه ندباً حاراً ، يصور فجيعة الأمة فيه حتى ليقول إن الشمس تبكيه مدى الدهر :

تَنْعَى النُّعاةُ أَميرَ المؤمنين لنـــا ... يا خيرَ مَنْ حَجَّ بيتَ الله واعتمرا
حُمِّلْتَ أمرًا عظيما فاصطبرتَ له ... وقمتَ فيه بـأَمر الله يا عُمَرَا
فالشمس كاسفةٌ ليستْ بطالعةٍ ... تبكى عليك نجومَ الليل والقمرا[1]

ويتولّى يزيد بن عبد الملك ، ويثور عليه فى العراق يزيد بن المهلب ، ويَقْضى على ثورته مسلمة ، ويصيح به جرير مراراً فى قصائد مدح بها يزيد ابن عبد الملك ، بنفس الصورة المثالية التى صور بها سابقيه من الخلفاء ، من مثل قوله :

زان المنابرَ واختالتْ بمنتجَبٍ ... مثبَّتٍ بكتاب الله منصورِ

ويصفه بالعدل وأنه ورث الملك عن آبائه بعهد منهم . ودائماً ينوّه فى مديحه لهم بهذا العهد ، فليست الخلافة عامة فى الأمة ولا فى قريش ، بل هى وراثية فى بنى أمية تتوالى فيهم بعهود موثقة . وآخر من مدحهم منهم هشام بن عبد الملك ، وفيه يقول فى آخر قصيدة مدحه بها ، وقد أرسلها إليه مع ابنه عكرمة :

إلى المهدىِّ نَفْزع إن فزعنا ... ونستسقى بغُـرَّته الغَماما
وحَبْـلُ الله يَعْصمكم قُوَاه ... فلا نَخْشَى لعُرْوته انفصاما[2]

ومدح جرير بجانب الخلفاء كثيراً من أبنائهم ، فهو يمدح مسلمة بن عبد الملك وعبد العزيز بن الوليد وأخاه العباس وأيوب بن سليمان ومعاوية بن هشام ، ودائماً ينوّه بالأسرة وأن الله اختارها للأمة ، فإذا قلنا بعد ذلك إنه عاش منذ عرفَ عبد الملك داعية للأمويين لم نكن مبالغين . وليس له فى سواهم إلا مدائح قليلة فقد مدح الحجاج وصهره الحكم بن أيوب كما قدمنا ، ومدح خالداً القسرى مستشفعا للفرزدق كى يُطلقه ، ومدح بعض أشراف تميم وزعيم مثل الهجيم بن

---

(١) ديوانه ص ٢٠٠ ط الصاوى . (٢) ديوانه ص ٢٠٠ ط الصاوى .

عبد الله الكلابي والجُنَيْد بن عبدالرحمن المُرِّي وهلال بن أحْوز المازني الذي نكّل بآل المهلب في ثورتهم . ويظل أضخم صوت في ديوانه تغنّى به مادحاً صوته في الأمويين . ولعل فيما قدمنا ما يدل على أنه لم يكد يلم بهذا الفن من فنون الشعر حتى برّز فيه على أقرانه ، وبدون شك كان يسبق فيه الفرزدق ، وفي رأينا كما قدمنا أنه كان فيه مع الأخطل فرسي رهان ، بل لقد كان يتقدمه في كثير من الأحيان بعذوبة لفظه ، وأيضاً بما كان يضع حول ممدوحيه من إطار الإسلام ومثاليته الكريمة .

ودائماً يتقدم جرير الأخطلَ والفرزدق جميعاً في الموضوعات التي تتطلب دقة في الإحساس ورقة في الشعور ، إذ كان الأخطل متكلفاً يصطنع الوقار ، وكان الفرزدق — كما أسلفنا — صاحب نفس خشنة صلبة ، ولذلك تفوق في الفخر وساعده أن وجد مادة غزيرة من مناقب عشيرته وآبائه هيأته ليرسل كلماته كأنها العواصف القاصفة والصواعق المدمِّرة . أما جرير فلم يكن لعشيرته ولا لآبائه شيء من المآثر الحميدة ، فانطوت نفسه على حزن عميق صَفّى جوهرها ، وزادفي هذا الصفاء تأثره بالإسلام إذ كان دَيِّناً عفيفاً طاهر النفس . واقرأْ رثاءه لزوجته أم حَمْزة ، إذ يقول :

لولا الحَياءُ لعـادني استعبارُ ... ولَزُرتُ قَبْرَكِ والحبيبُ يُزَارُ
ولَهْتِ قلبي إذ علتْني كَبْرَةٌ ... وذوو التمائم من بَنيك صِغارُ
ولقد أراكِ كُسيتِ أجملَ منظرٍ ... ومع الجمال سكينةٌ ووقارُ
صَلَّى الملائكة الذين تُخُيِّروا ... والصالحون عليكِ والأبـرارُ

فإنك تحس تفجعه المرير ، لقيام سور الموت الصفيق بينها و بينه هو وأولادها ، وهو يدعو لها دعاء المسلم المؤمن قلبه ، محيِّيا فيها جمالها وخلقها الرفيع . وتدل دلائل كثيرة على أن علاقاته بزوجاته : أم حَمْزة هذه وأمامة التي أهداها إليه الحجاج وأم حكيم الديلمية أم ابنيه بلال ونوح ، كانت علاقات وُدٍّ ومحبة . ولم تَنْشز عليه سوى جارية اشتراها بأحَرة ، وقد عابت عليه عَيْشه وكَبْرة سنه ، ففارقها راضياً . أما زوجاته المذكورات فكن يبادلنه ودّاً بود ، وقد اتخذهن

موضوعاً لغزله الرقيق الذى كان يقدِّم به بين يدى قصائده ونقائضه . وأتاح له صفاء نفسه وانطواؤها على الحزن أن يبلغ من هذا الغزل كل ما يريد من تصوير الحب الخالص الطاهر ، إذ ما يزال فيه يتلطف ويستعطف ويشكو ويتضرَّع على شاكلة قوله :

بنفسى من تجنُّبهُ عزيزٌ ... علىّ ومَنْ زيارته لمامُ[1]
ومن أُمْسى وأُصبح لا أراه ... ويَطْرقنى إذا هجَع النِّيام

وقوله :

لقد كتمتُ الهوى حتى تهيَّمنى ... لا أستطيع لهذا الحب كتمانا
إن العيون التى فى طرفها مرضٌ ... قَتَلْنَنَا ثم لم يُحْيين قَتْلانا
يَصْرَعنَ ذا اللُّبِّ حتى لاحَراك به ... وهن أضعفُ خلق الله أركانا
أتبعتهم مُقْلَةً إنسانُها غَرِقٌ ... هل ما ترى تاركٌ للعَيْن إنْسانا[2]

وكان إذا هجا نساء من يهجونه أصبح سما ذعافاً لا يطاق ، فإذا أشاد بنساء عشيرته أو بنساء عشيرة النَّوار زوجة الفرزدق إغاظة له وكيداً نثر فوقهن زهور شعره ، واصفاً خلقهن الكريم وجمالهن الباهر الذى يَشْغف القلوب ، ومن بارع قوله فى نساء عشيرة النَّوار :

وهنَّ كماء المُزْن يُشْفَى به الصَّدَى ... وكانت مِلاحاً غيرهن المشاربُ[3]

ولعل شاعراً قديماً لم يستطع أن يصف عواطف الأبوة وحنانها تلقاء الولد على نحو ما صوَّر ذلك فى هذه المقطوعة التى يصور فيها حبه لابنه بلال :

إن بلالاً لم تَشِنْه أُمُّهُ ... يَشْنى الصُّداعَ ريحُه وشَمُّهُ[4]
ويُذْهب الهمومَ عنى ضَمُّهُ ... ينفح ريحَ المسك مُسْتَحَمُّهُ
يُمضى الأُمور وهو سامٍ هَمُّه ... بَحْرُ البحور واسعٌ مجَمُّهُ[5]
يُفَرِّج الأَمرَ ولا يَغُمُّهُ ... فنَفْسُهُ نفسى وسمِّى سَمُّهُ[6]

---

(١) يريد أن طيفها يزوره وهو نائم فى الحين بعد الحين .
(٢) إنسان العين : سواد حدقتها .
(٣) المزن : السحاب . الصدى : العطش .
(٤) يشير إلى أن أمه أعجمية ، ولم تشنه عجمتها .
(٥) المجم : الصدر .
(٦) يغمه : يبهمه ويستره .

وواضح أن جريراً كان لا يبارَى فى جميع الموضوعات التى تتصل بدقة الأحاسيس ورقة المشاعر ، وهو لذلك يسبق الأخطل والفرزدق فى الرثاء والغزل وعواطف الزوجية والأبوة ، وهو كذلك يسبقهما فى الهجاء الخالص إذ كان يعرف كيف يَريش سهامه ويسدِّدها إلى نحور خصومه، محمِّلا لها كل ما يمكن من سموم . وليس لأحدهما موضوع يتقدم به عليه سوى ما كان من فخر الفرزدق إذ لم يكن لجرير مادة يبنى منها فخره ، إلا أن يرتفع عن عشيرته إلى يربوع أو إلى تميم عامة ، حينئذ تَنِدُّ عنه أبيات رائعة كقوله :

إذا غضبتْ عليك بنو تميمٍ حسبتَ الناس كلَّهمُ غِضابا

ولكنه على كل حال يقصر عن الفرزدق فى هذا المجال . ومن الحق أن الفرزدق كان نَبْعاً ثَرًّا من ينابيع الشعر ، ولذلك استطاع الصمود لجرير ، والأخطل — مع أنه استطاع أن يثبت له — يأتى دون الشاعرين جميعاً ، إلا ما يسوقه فى النُّدْرة من قطع مديح متوهجة . وساق نفسَ هذا الحكم عليهم قديما بشارٌ ، فقال حين سأله سائل عنهم : « لم يكن الأخطل مثلهما ولكن ربيعة تعصَّبت له وأفرطت فيه » ومضى يفضل جريرا على الفرزدق فقال : « كانت لجرير ضروب من الشعر لا يحسنها الفرزدق ، ولقد ماتت النَّوار (زوجه) فقاموا ينوحون عليها بشعر جرير ؛ إذ لم يجدوا للفرزدق شعراً يصلح . فقال له السائل : وأى شىء لجرير من المراثى إلا التى رثى بها امرأته : أم حَزْرة، فأورد عليه بشار مرثيته فى ابنه سوادة التى يقول فيها :

فارقتَنى حين كفَّ الدَّهْرُ من بَصَرِى وحين صِرْتُ كعظم الرِّمَّة البالى

فاقتنع سائله[1] .

وإذا رجعنا إلى أساليب الثلاثة وجدنا الأخطل يُعْنَى أشد العناية بصقل ألفاظه وتنقيحها ، وكأنه من ذوق مدرسة زهير الجاهلية ، ولم يكن الفرزدق يُعنى بصقل ألفاظه كل هذه العناية ، ومن ثم ظهر فيها كثير من صور الانحراف والشذوذ على نحو ما مرّ بنا فى غير هذا الموضع، وقد أتاه ذلك — كما أسلفنا — من

---

(١) ابن سلام ص ٣٩١ .

خشونة نفسه وصلابتها ومن تمرده الطاغى . ومما لا شك فيه أنه كان قوى البصيرة فى نقد الشعر وتمييز جيده من رديئه، حتى قالوا إنه كان يَسْطو على بعض أبيات معاصريه ، حين يبهره حسنها ويفرط بها إعجابه . وهو بعامة يمتاز فى شعره بجزالة لفظه وشدة أسْره . أما جرير فإنه لا يبارَى فى عذوبة كلمه وحلاوة نغمه ، فإذا قرأته أحسست الذوق المهذب الصافى ، وقد جاءه ذلك من تأثره بالقرآن الكريم وأساليبه ، وكانت نفسه لينة رقيقة لا تشوبها شوائب من تمرد ، فجرَت أشعاره صافية ، كأنها الجدول الرقراق ، أشعار تلذُّ الأذن بكمال جرْسها وتلذ النفوس والأفئدة .